كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام ١٩٩٦
عدد ٦٨ الأربعاء ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ م

مقتطفات

ليلى المريضة في العراق

زكي مبارك

رسوم سعد يكن





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

الإنطلاقة الأولى لـ "كتاب في جريدة"

كان يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٢ يوما مشهودا في مسيرة المشروع الثقافي الكبير"كتاب في جريدة" حيث شهد فندق موفنبيك في بيروت الإجتماع الأول للإنطلاقة الجديدة للمشروع الذي توقف لعشرة شهور بسبب شحة التمويل إلى أن امتدت يد رجل الأعمال العربي السعودي الشيخ محمد بن عيسى الجابر لإنقاذ "كتاب في جريدة" وإعادة انطلاقته في ثوب وشكل وروح جديدة ولمدة خمس سنوات قادمة، وليضيف بذلك عملاً جليلاً لأعماله المتشعبة في خدمة الثقافة العربية، يفعل ذلك باقتناع وإخلاص وصدق انتماء لعروبته وثقافته العريقة.

كان اللقاء الذي دام ثلاثة أيام ليس احتفاليا بالمظهر فحسب، وإنما إنعاشا للآمال وإعادة للكتاب العربي لملايين القراء في الوطن العربي الذي يلتقون مرة أخرى مع "كتاب في جريدة" يوم الأربعاء الأول من كل شهر من خلال صحف مختارة في أرجاء الوطن العربي، لينهلوا من المعرفة، ويزدادوا ارتباطا بثقافتهم وأفكار ونتاج مبدعيهم، في زمن هم أحوج ما يكونون فيه إلى تأكيد الإنتماء والإرتباط بالجذور الثقافية العربية والإسلامية.

كان اللقاء حافلاً بالنخبة التي حضرته برعاية معالي الأستاذ غازي العريضي وزير الثقافة اللبناني ومشاركة الدكتور أحمد الصياد مساعد المدير العام لليونسكو للشؤون الخارجية والتعاون والأستاذ الشاعر شوقي عبد الأمير المؤسس والمشرف العام على المشروع وأعضاء الهيئة الإستشارية

ومن بينهم الشعراء أدونيس ومحمود درويش والدكتور جابر عصفور والدكتور سمير سرحان ورؤساء تحرير الصحف العربية المساهمة في نشر المشروع ونخبة من المفكرين والأدباء والشعراء والمثقفين والمهتمين بالكتاب.

وكان في مقدمة كل هؤلاء ممول المشروع وصاحب الفضل – بعد الله – في إعادة الحياة إليه معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر الذي أسر جميع الحضور بحسن رعايته وتواضعه واهتمامه الصادق بالمساهمة الفعالة بالثقافة العربية.

وإلى لقاء متجدد في كل شهر للسنوات الخمس القادمة التي نأمل أن تمتد لسنوات أخرى إن شاء الله.

عن جريدة الراية – الدوحة



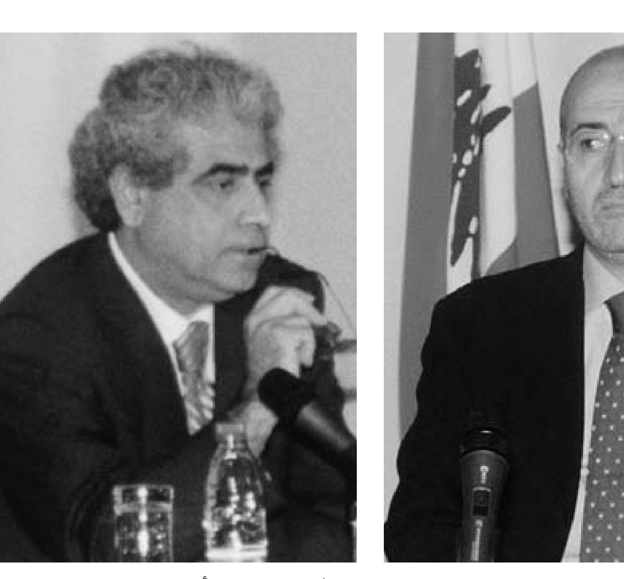


الشيخ محمد بن عيسى الجابر



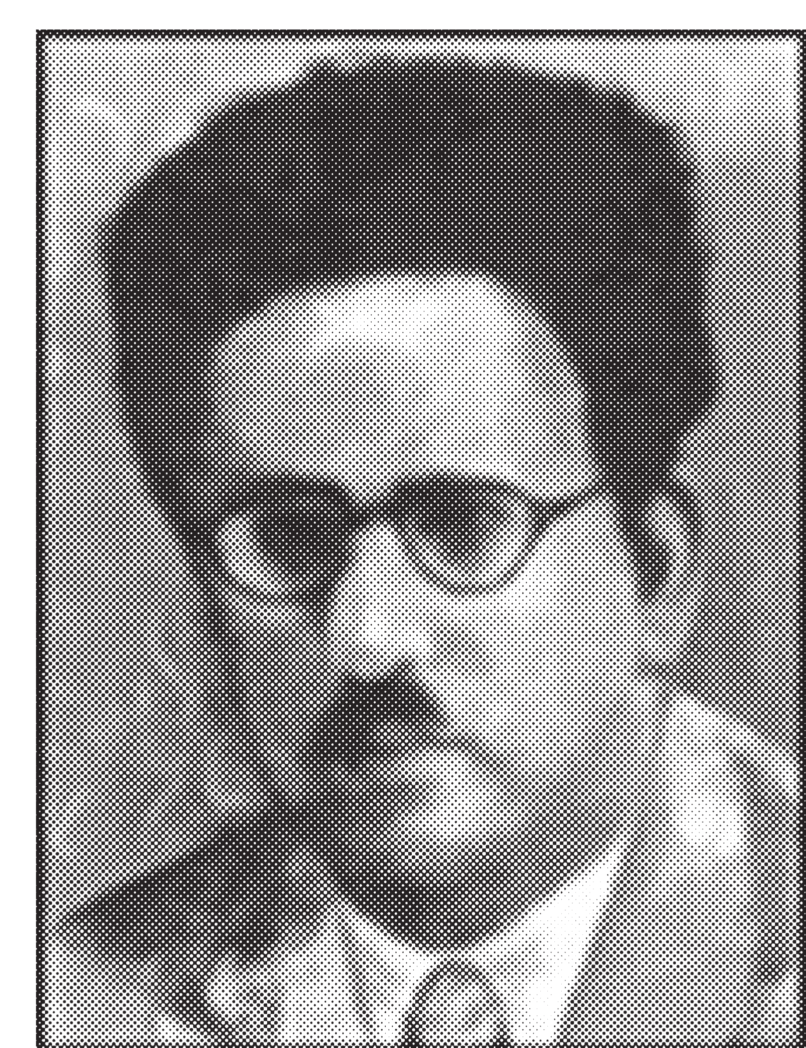
د. أحمد الصياد





الأستاذ غازي العريضي وزير الثقافة اللبنانية

السيّد شوقي عبد الأمير



زكي مبارك ١٨٩٢-١٩٥٢

ولد زكي مبارك – واسمه الكامل زكي بن عبد السلام بن مبارك – في قرية (سنتريس) بمحافظة المنوفية بمصر في العام ١٨٩٢، (وفي الأعلام لخير الدين لزركلي إن ولادته كانت في العام ١٨٩١)

بدأت نشأته الأدبية بحفظ القرآن الكريم في طفولته، ثم في دواوين الشعر العربي القديم.

إلتحق للدراسة بالأزهر في العام ١٩٠٨، وهناك لقب بشاعر الأزهر.

حصل على ليسانس الآداب في العام ١٩٢١.

يعرف زكي مبارك بالدكاترة لحصوله على ثلاث درجات في الدكتوراه في الفلسفة والتصوّف والأدب، إثنتين منها من جامعة السوربون الفرنسية عام ١٩٢٤، وعام ١٩٣١.. والثالثة من الجامعة المصرية عام ١٩٣٧ بعد عودته للقاهرة.

مثقّف موسوعي، سجالي عرف بمعاركه الأدبية مع أقرانه رواد النهضة الأدبية العربية في مصر، كطه حسين والعقاد وأحمد أمين وسواهم، إضافة إلى سجالاته الشهيرة مع الأدباء العراقيين، بسبب كتابه الرائد 'عبقرية الشريف الرضي' الذي فضّله فيه على المتنبي مما أثار أوساط الأدب في العراق، وكانت مجمل خصوماته الفكرية حافزاً له على العطاء الأدبي لأنها (تقوي عزيمته) حسب ما يذكر.

عمل في التدريس في مصر، كما عين مفتشاً بوزارة المعارف، سافر إلى العراق للعمل مدرّساً للأدب العربي في دار المعلمين العليا ببغداد، التي كانت تشهد إرهاصات التحول الفكري قبل نشوب الحرب العالمية الثانية.

إمتاز باعتداده بنفسه وبأفكاره، وظل يشعر بنوع من الظلم والتهميش لدوره بين رواد النهضة الفكرية بمصر.

له نحو ثلاثين مؤلفاً في فنون النثر والشعر وتاريخ الأدب، إضافة إلى الفلسفة والتصوف الإسلامي. منها:

النثر الفني في القرن الرابع – جزءان
البدائع (مقالات في الأدب والإصلاح)
حب ابن أبي ربيعة وشعره
التصوف الإسلامي
ألحان الخلود (ديوان شعر)
ليلى المريضة في العراق
الأسمار والاحاريث
ذكريات باريس
الأخلاق عند الغزالي
وحي بغداد
ملامح المجتمع العراقي
الموازنة بين الشعراء
عبقرية الشريف الرضي – جزءان
اللغة والدين في حياة الاستقلال.

إستفاد زكي مبارك في دراسته للتراث العربي من المنهج الاستشراقي، المستند إلى ثقافة عضوية فذة، ورأى إن النثر سيكون مؤثراً في الحياة العربية وثقافتها، كما كان للشعر ذلك التأثير القوي.

توفي على أثر صدمة بعربة تجرها الخيول بالقاهرة في العام ١٩٥٢، ودفن في مسقط رأسه بقرية (سنتريس).

تمثل رواية 'ليلى المريضة في العراق' واحدة من نتاج مرحلة وجوده في العراق التي كانت مليئة بالإنجاز الأدبي والنشاط الذي يؤكد أنه استمدّه من نشاط المدينة التي ألّف فيها أربعة من كتبه رغم أنه لم يمكث في العراق سوى سنة واحدة، إلا إن بغداد تركت في نفسه أثراً كما لم تتركه أكثر من عشرين مدينة زارها في العالم، بل ما لم تتركه حتى باريس والقاهرة كما يقول. وخلال وجوده هناك لاقى احتفاء من أدباء البلاد، وزار عدداً من المدن، وفي زيارته للنجف الأشرف أقيم له حفل تكريمي حياه خلاله الشاعر عبد المنعم الفرطوسي بقصيدة شهيرة سماها 'نجل مصر'.

'ليلى المريضة في العراق' المستوحى عنوانها من بيت شهير للمجنون العامري، تلخص تحية عشق وعرفان، وشهادة حية عن حال بلاد خرجت من قبضة المحتل التركي لتقع في قبضة المحتل البريطاني، لكنها بقيت تصنع صيرورتها من جديد، فقد لاحظ زكي مبارك من خلال مقالاته المثيرة والكثيرة عن بغداد، إنها مدينة حية قادرة، باستمرار، على استيعاب الأخطار وهضمها، لتستعيد صورتها مرة أخرى، وهي مختبر للثقافات، دون أن تفقد هويتها، ودون أن تودي بها الفتن بشتى صنوفها، ولعل استنادها إلى ماض قوي وفعال مؤثر، كان الدريئة الثقافية الحصينة لدفع تلك الأخطار.

أهمية إعادة نشر 'ليلى المريضة في العراق' تتأتى من كون هذا العمل يرصد تفاصيل حياة بلاد، في النصف الأول من القرن العشرين، لكنها توضع من جديد أمام تحدٍّ مماثل بعد أكثر من ستة عقود.

يخاطب زكي مبارك بغداد بحميمية العاشق، فيقول "أنت مظلومة يا بغداد، وأنا مظلوم يا بغداد. والظلم يجمع بين القلوب" وربما كان من المناسب أن يُنشر هذا الكتاب بوصفه محاولة لرفع جانب من الظلم، عن المدينة، وعن المثقف الذي عشقها في الآن نفسه.

محمد مظلوم

سعد يكن

سعد يكن فنان سوري يعيش في حلب متفرغاً للعمل الفني. تخرج من مركز الفنون التشكيلية بحلب سنة ١٩٤٦ وأسس فيها صالة "النقطة" للآداب والفنون.

أقام معارض كثيرة في سورية والدول العربية والعالم، وأعماله موزعة في جميع أنحاء العالم. اعتمد سعد يكن في مشواره الفني الطويل على رسم الإنسان وتحويره للظفر بعدد لا يحصى من المعاني التي يرغب في التعبير عنها.

ينزع في عمله الحالي إلى تصور أقرب للإنسان دون أن يفقده زخمه وقوة استفساره وحيرته وقلقه ودون أن تختفي من ملامحه القدرة على عكس وحشته وغربته ووحدة عزلته تجاه وجوده ومصيره، بل إن النزوع الملحمي لدى سعد تكرس أكثر من خلال تلك الوجوه التي تبدو الآن أكثر إنسانية تحت ثقل مصائرها وأكثر شبها بنا وأقرب إلينا، وهو يحركها مثل ساحر مستعينا بقدرة على الرسم وقوة خط يتحرك بسلاسة وبفنتازيا تستند إلى مخيلة خصبة مجنحة لا تقف عند حدود ولا تخفيها القوالب الجاهزة.

عصام درويش

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

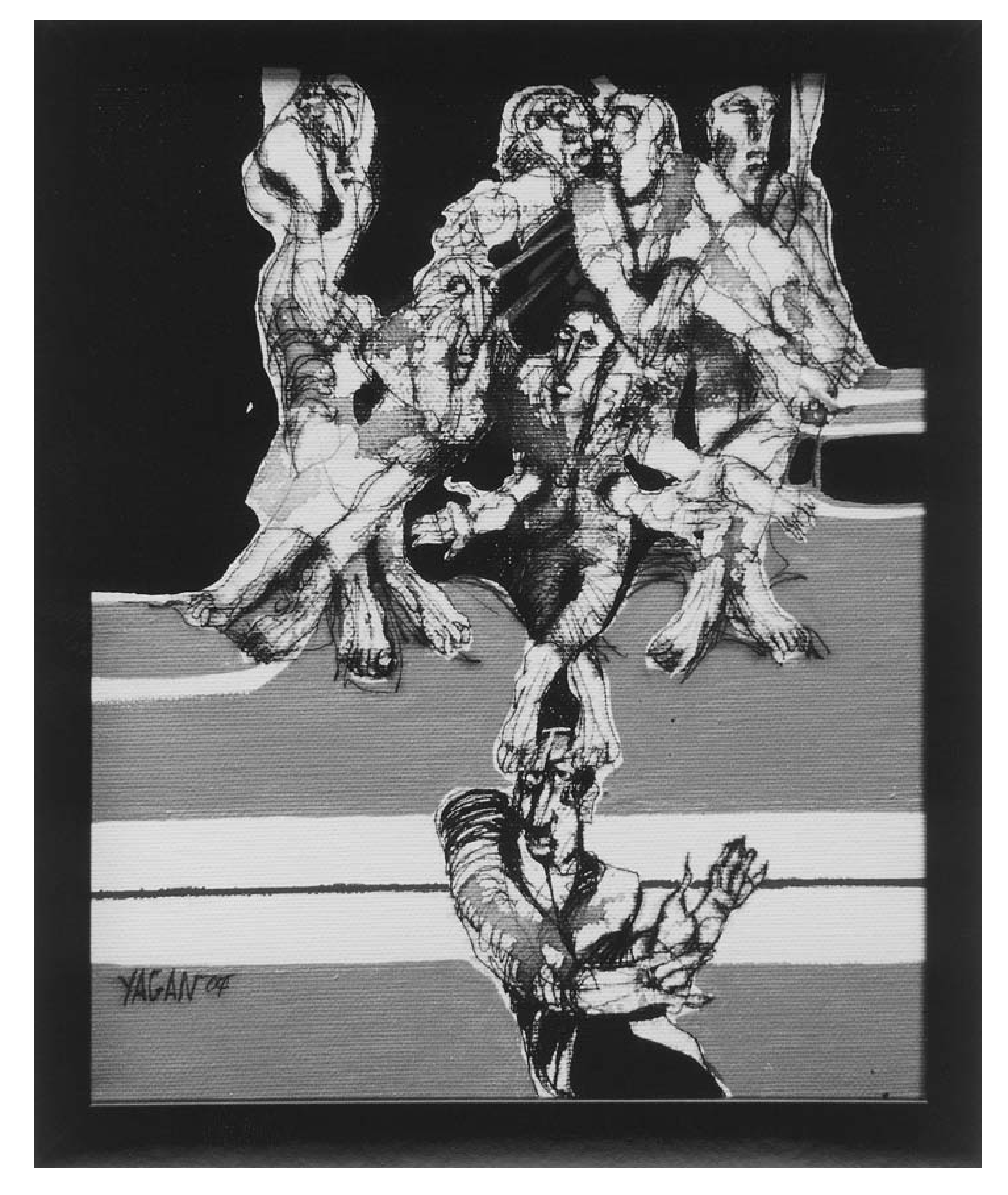
سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه ـ محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر



كتاب في جريدة
العدد الثالث للإنطلاقة الجديدة
التسلسل العام: عدد رقم ٦٨
(٧ نيسان ٢٠٠٤)

ص.ب 1460 ـ بيروت، لبنان
تلفون 601 798 (1-961+)
فاكس 614 791 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

ليلى المريضة في العراق ـ مقتطفات

زكي مبارك

١

أخي الأستاذ الزيات،

تحيتي إليك، وإلى السامرين في نادي الرسالة من كرام الأصدقاء. وتحيّتي إلى القاهرة التي لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لماح. وسلامي على مصر الجديدة وعلى سنتريس. ولو شئت لسلمت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلو الجدل ويطيب الضجيج!

وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد. أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبت أستاذاً للأدب العربي بدرجة دكتور؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمت أن الغرض من ذلك مداواة ليلى المريضة في العراق. وقد صرح بهذا سعادة الأستاذ عوض ابراهيم بك وسعادة الأستاذ محمد فهيم بك، وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف «مدامع العشاق».

* * *

تلك هي الأسباب التي قضت برحيلي إلى العراق ولولا ذلك لبقيت في مصر أحارب من أحارب، وأسالم من أسالم، وفقاً للنزق والطيش، وطاعة لصديقنا الشيطان!

ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التي سبقت رحيلي إلى العراق: فقد قضيتها في درس الطب النفساني والروحاني وزودت عقلي بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث، من أمثال الدكتور محجوب ثابت، والدكتور محمد عبد الحي، والدكتور منصور فهمي، والدكتور طه حسين.

ولم يفتني أن أستفتي بعض المولعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوي، والأستاذ محمد مسعود، والموسيقار محمد عبد الوهاب.

وكان في النية أن أستفتي بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف ولكن ضاق الوقت عن ذلك.

* * *

وجاء يوم الرحيل، والتفتّ فإذا محطة القاهرة تموج بعدد كبير من كرام الأصدقاء، وكنت أظنهم جاءوا مودعين، ثم دهشت حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليحملوني التحية إلى ليلى المريضة في العراق! وعند ذاك عاهدت نفسي وعاهدت الواجب أن أكون عندما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل. ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمت خيالي إلى مغريات الأحلام. ولما وصلت إلى بيروت رجاني بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً في ضيافة لبنان فأبيت وقلت: كيف أتلبث في الطريق والواجب يدعوني الى عيادة ليلى المريضة في العراق؟ وكذلك كان حالي حين وصلت إلى دمشق، فقد رجاني الأستاذ كرد علي والأستاذ عبد القادر المغربي أن أقيم مدة بالشام في ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد، فأبيت وقلت: كيف أتمهل في الطريق والهوى يدعوني إلى موافاة ليلى المريضة في العراق؟

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة في الطريق من دمشق إلى بغداد. ولا تسلني كيف قضيت تلك الساعات الطوال فقد كانت كألف سنة مما تعدون، بسبب القلق على ليلى المريضة في العراق. ولما وصلت ألقيت أثقالي في الفندق، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف أتلقى تعليماته فيما يختص بذلك الروح العليل.

* * *

ستمضي الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف في العراق، فقد بدا رجلاً شاعراً لا يهمه غير الإطمئنان على ليلى المريضة في العراق؛ وجلست فتحدثت معه في كثير من الشؤون، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلى، فأخذ مني العجب كل مأخذ، وخشيت أن تكون «قصة» ليلى قصة مخترعة، وأنني كنت حين صدقتها من كبار الأطفال!

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطاني وكيل العميد جدولاً يقصم الظهر، وهو دروس في الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلى المريضة في العراق. فتأكدت مرة ثانية أن قصة ليلى من إختراع الخصوم الألداء الذين أرادوا أن يستريحوا مني فزينوا لي الرحيل إلى العراق.

ثم خطر بالبال خاطر طريف: فقد حدثتني النفس بأن مرض ليلى لا يهمّ أهل العراق، وإنما يهمّ المصريين؛ وإذن فلا بدّ أن تكون المفوضية المصرية على بيّنة من هذه القضية. فأخذت عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال المفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة في العراق وصرّح أحدهم بأن هذه القصة من أوهام الشعراء؛ وكذلك عرفت مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً في خداع. وعند الله جزائي على الصدق في الحب.

* * *

قضيت الأسبوع الأول وأنا في همّ مقعد مقيم. وهل كان يعوزني أن أدرّس الأدب وفقه اللغة والتفسير؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلي حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً للأدب في مدرسة عالية؟ إنما كنت أرجو أن أؤدي رسالة عجز عنها الزيات والسنهوري وعزام، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلاً ساذجاً لا يدرك وجه المحال في أحاديث الرجال.

وفي الأسبوع الثاني تلقيت رسالة من القاهرة: رسالة من الآنسة جيمي التي ملكت نهاي حيناً من الزمان، وهي تسأل وتلحّ في السؤال عن ليلى المريضة في العراق. وللآنسة جيمي حقوق، فقد كانت أوهمتني في السنين الخالية أن الهوى إله معبود، وبالرغم من تجنّيها في الأيام الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمر يجب أن يُطاع. ومنّيت نفسي برضاها في الليالي المقبلات، حين يسمح الدهر بمسامرة الأنجم الزهر على ضفاف النيل. فهل تراني أعيش إلى ذلك العهد يا صديقي الزيات؟ وهل أعاقر الهوى من ذلك الرضاب بعد أن تدول دولة الفراق؟ ولكن ماذا أصنع؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة في العراق أصل بها إلى قلب الآنسة جيمي؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد إختراع الأقاصيص؟ ومعشوقتي تميز بين الصحيح والمزيف من أحاديث الوجدان! رعاك الله يا جيمي وأراني وجهك الجميل؟

* * *

ما أعجب ما تصنع المقادير!! هذا رجل يسأل عني بالتليفون تسع مرات في كل يوم؛ وها هو ذا ينقلني بسيارته إلى منزله الفخم بالكاظمية، ويسألني كيف وجدت ليلى، فأتضاحك وأنا محزون، وأقرر أن ليلى إسم إخترعه العابثون من الشعراء؛ وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول: أن ليلى لا تزال مريضة في العراق، ولكن العراقيين يتجاهلون ذلك، لأنهم في هذه الأيام مرضى بالجد والنشاط، ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان. ولا تعجب أن كتم عنك رجال المفوضية المصرية أخبار ليلى، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوقار الذي تصطنعه حكومة العراق.

وما أكاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضي به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلى وما هي إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع في شارع العباس بن الأحنف، أحد شوارع بغداد وأطرق الباب برفق كأنني على ميعاد، وتخرج وصيفة فتقول:

«من الطارق؟» فأقول: «أنا الدكتور زكي مبارك» فتقول: «أدخل بسلام، فإن ليلى تنتظرك منذ سنين».

... ودخلت أعدو خلف الوصيفة في بصر زائغ، وقلب خفاق، فلم أكد أتبين مدخل البيت، وعثرت قدمي على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف، وإنتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد، وتركتني الوصيفة وراحت تدعو ليلى، فتلفتّ أدرس أثاث الغرفة في لهفة وشوق، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت:

يقولون ليلى في العراق مريضة

فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التي جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعت في ترجيع هذا البيت، ورأيت فوق المنضدة كتابين: رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده وذكريات باريس للشيخ زكي مبارك، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهدى والضلال!

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة، وإستمر الحال كذلك عشرين دقيقة فدفعني الملال إلى التلهّي بالنظر في سلة المهملات، وما أدري كيف وقعت في هذا الفضول، فهل تصدقون أني رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من «فلان» يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب؟ سامحك الله يا دكتور فلان ولا أراك نعمة الهوى والجنون!

***

لعل ليلى في زينتها وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائي كل هذا الزمن الطويل؟

ثم فتح الباب، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شيء، ولم لا أقول: دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال؟

وإنحطّ ذلك الشبح على أحد المقاعد ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الخفوق، وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى؛ رباه! ماذا أسمع؟ إن أذني لا عهد لهما بمثل هذا الصوت المتكسر الناعم الحزين.

ومضت ليلى تتكلم وتسهب ولكني لم أفهم شيئاً، فقد كنت مشغولاً بدرس طبيعة هذا الصوت، هذا الصوت الذي يذكّرني بتلك الفتاة التي خفق القلب لها أول خفقة، والتي قلت فيها أول قصيدة، وسكبت عليها أول دمعة، تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس. ما هذا الصوت؟ يا رباه! أفي الحق أني سمعت أمثال هذه النبرات على كثرة ما طوفت في البلاد؟

لا أكذب الحق، هذا جوهر لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس وإنما هو من جواهر العراق هو صوت تحدّر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد المفتونين:

وكأن رجع حديثها

قطع الرياض كسين زهرا

هو صوت تحدّر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد القدماء:

رهبان مدين والذين عهدتهم

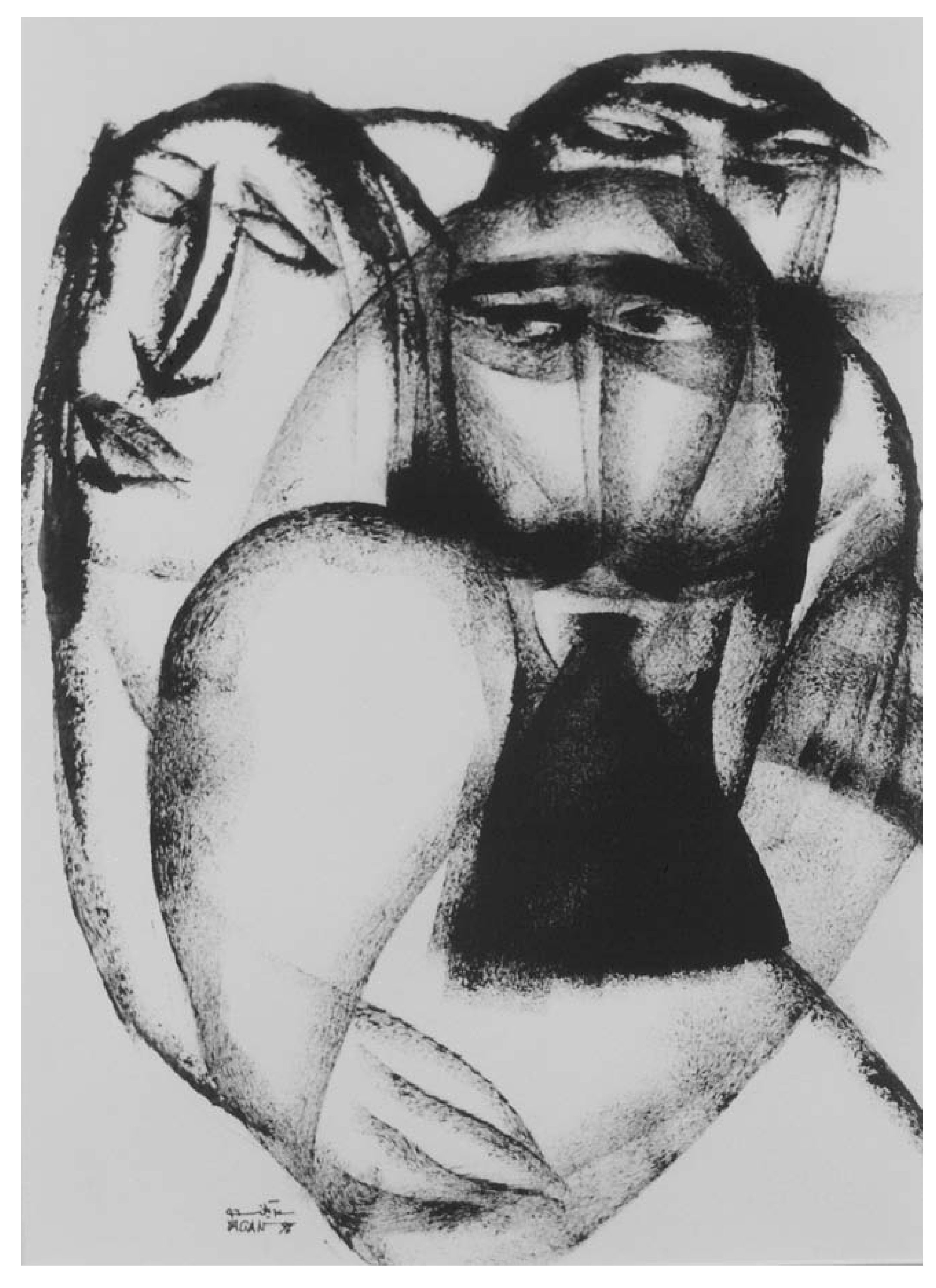
يبكون من خوف العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها

خروا لِعَزَّةَ ركّعاً وسجودا.

هو صوت ليلى يا بني آدم، ليلى المريضة في العراق ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللعاب!

***



ثم إنتبهت، فقلت في نفسي: إن ليلى بخير فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهدّ رواسي الجبال. ثم انطلقنا نعدو في شجون الأحاديث، فسألتني عن مصر وسألتني عن صاحبة الذهبية التي ترسو على الشاطئ الايمن خلف جسر إسماعيل فعجبت من أن تصل أخباري الى ليلى وهي مريضة في العراق، وقلت: إن تلك الانسانة بخير ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة وقد صحا القلب يا ليلى فلم يعد بيننا تلاقٍ منذ ربيع سنة ١٩٣٥، والله المستعان على مكاره الصدود! فتنهّدت ليلى وقالت: حتى أنت تنسى العهود! وماذا خلّيت لقلق القلوب؟ ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل، وسألتني عن كثير من الأدباء، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت أن الاستاذ الزيات يسلم عليك. فقالت: لا أحب أن أسمع إسمه. فقلت: وكيف؟ فقالت: هل تصدّق أنه أقام سنين في بغداد ولم يسأل عني؟ فتشجّعت وقلت: لعلّ له عذراً وأنت تلومين، ذلك رجل يتهيّب أقاويل المرجفين؛ وإستطردت فقلت: ولعلّ الدكتور السنهوري قام بالواجب فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت: السنهوري أغلظ كبداً من ذلك! فقلت: وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام؟ فأجابت: أوَكنت تحسبني أنتظر زيارة الدكتور عزام؟ إنه رجل أديب، ولكنّ إنشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك في قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس. فقلت: لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين، فماذا فعل؟ فقالت: هو رجل صافي الذهن، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه في مصر أن العالم الحق لا يليق به أن يشغل بشؤون الوجدان. ثم أغرقت في صمت موحش حسبته لوناً من العتاب.

***

وجاءت أقداح الشاي فتجرّأت وقلت: وأين أكواب الصهباء؟ نحن في حضرة ليلى وتحت سماء بغداد! فقالت: أنا امرأة مسلمة ونحن في رمضان... وأنت؟ فقلت: وهل حسبتني من الكافرين؟ وفهمت أنني أخطأت فغيرت مجرى الحديث.

ـ مولاتي ليلى!

ـ نعم، يا مولاي!

ـ إنما جئت للعناية بصحتك، كما تعلمين.

ـ أعرف ذلك، وهو فضل سأذكره ما حييت. سأذكر أن



الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو إمرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال، ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون. فقلت: البركة في الحكومة العراقية. فقالت: الحكومة العراقية؟ سامحها الله! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغاني والأناشيد، إلا الصوت الحزين:

يقولون ليلى في العراق مريضة

فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

وهنا تنبّهت إلى أني لم أسمع هذا الصوت في بغداد. فقلت: وكيف تحرّم الحكومة العراقية هذا الصوت؟

فأجابت: إن الحكومة في هذا الزمن لا تعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع وهي تبغض أحاديث الوجدان كل البغض، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق. فقلت: وكيف يصحّ ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو المدفعي وعندكم وزير أديب وهو الشبيبي؟ فقالت: أما المدفعي فله من إسمه نصيب لأنه منسوب إلى المدفع، وأما الشبيبي فلا تغرّنك بسماته العذاب، فقد كان شاعراً فيما سلف، أما اليوم فهو من دواهي العراق، العراق الذي يعبد النضال. ومرّت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح.

* * *

ـ مولاتي ليلى!

ـ نعم يا مولاي!

ـ إنما جئت للإهتمام بصحتك.

ـ أشكر لك يا دكتور، ولكنك تكرّر هذه العبارة، فماذا تريد؟

ـ أريد أن أرى وجهك ويديك.

ـ وهل تريد أن تخطبني؟

ـ ليس هذا ما أريد، فلي بحمد الله أهل وأبناء.

ـ اذن ماذا تريد؟

ـ إعقلي يا ليلى، أن الامر كلّه جد، والأمة المصرية تهتمّ بصحتك أبلغ إهتمام، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتني إليك ثم بالغت في الإحتياط فأوعزت إلى الدكتور علي باشا إبراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل في بغداد، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنت في عافية الفرس الجموح، فان لم يكن ذلك فلا أقلّ من أن أقدّم للمؤتمرين تقريراً إضافياً يشهد بأنني لم أضع الوقت في التعرّف إلى عيون الظباء. وسيقدّم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومي الألدّاء وأخشى أن يشي بي فيصرّح لمعالي الأستاذ نجيب الهلالي بك بأنني لم أكن في الحرص على مهمتي من الصادقين.

وبدأت ليلى فكشفت عن يديها، فإنخلع قلبي من الرعب، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصفر الدقاق. فتماسكت وقلت: وعيناك؟ فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له في ماضيه تاريخ جميل، وتأمّلت أنفها مرات ومرات، فرأيت فيه أخيلة من الملاحة قلّما يجود بمثلها الزمان.

ثم إرتقيت فوقعت على عينيها وقوع الطائر الظمآن على الورد النمير. الله أكبر! ما هذا السحر المبين؟ أأنت مريضة يا ليلى ولك هاتان العينان؟

فإبتسمت وقالت: صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب! فقلت: إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروع يا مريضة العراق. وقضيت ساعتين في مسامرة ليلى ثم إستأذنت في الإنصراف.

والله المحمود على نعمة الحديث.

* * *

والآن أوجّه القول إلى الأمّة المصرية، الأمّة القلقة على ليلى المريضة في العراق، إليهم أوجّه الكلام فأقول:

بني وطني إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة: رخامة الصوت، وحلاوة العينين؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضنى والنحول وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة.

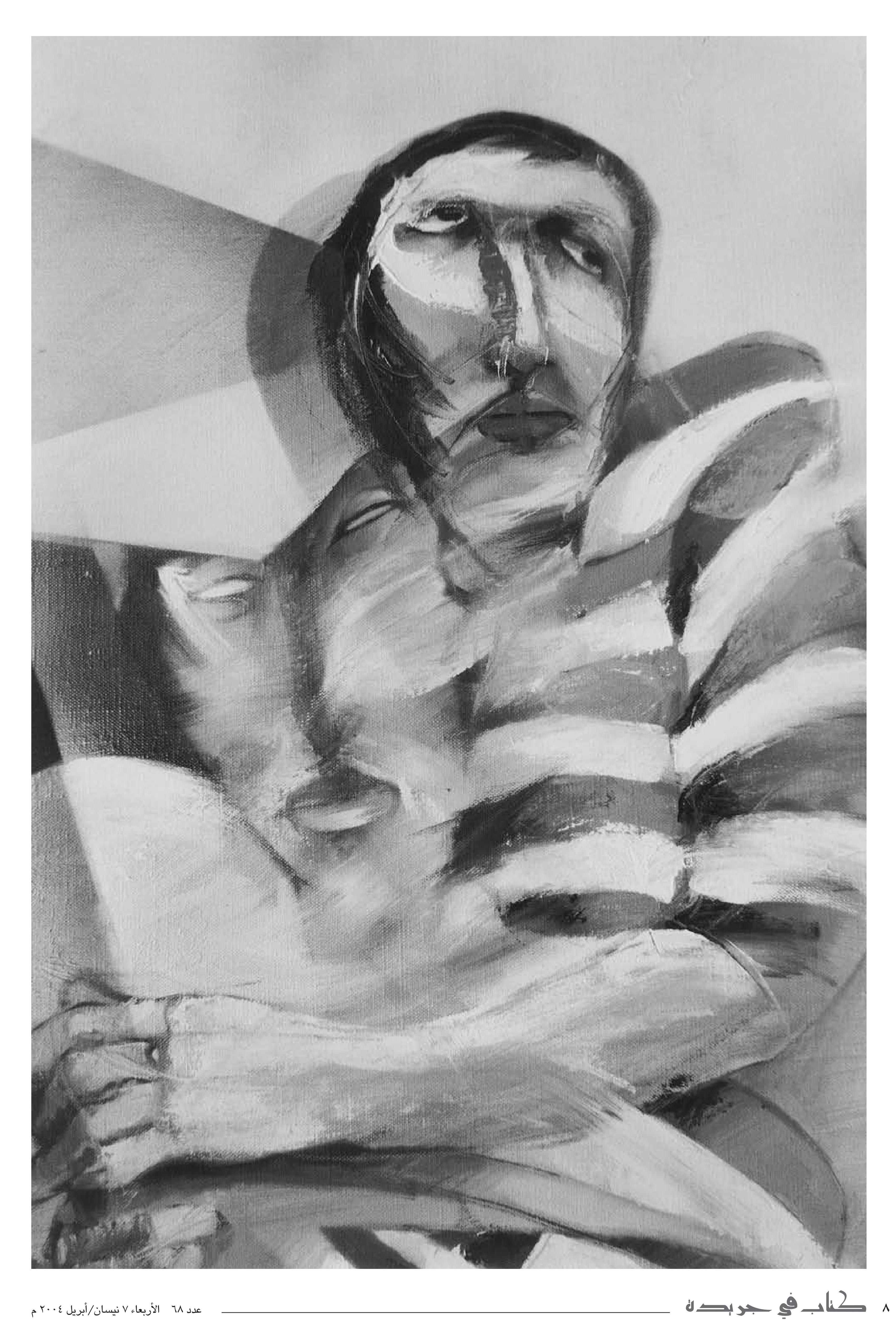
وقد كلّفت السيدة جميلة المقيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد فإن حضرت تلك الوصيفة سأعرف سرّ ليلى. سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول. فإن تمّت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء وإن لم تتمّ فستذهب جهود المؤتمر الطبّي أدراج الرياح.

وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة، فما أحب أن يعودوا خائبين، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول.

* * *

وأنت أيتها السيدة التي إسمها جميلة، والتي زعمت أنني فتى جميل، إسمعي، ليس يهمني بالدرجة الأولى على حدّ تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل أسبوعين، يا بخيلة، وإنما يهمّني أن تقودي وصيفة ليلى إلى منزلي، إلى غرفة الإستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق.

يا جميلة! لقد كنت في صباك جميلة، فكوني عندما أرجوه من محمود الظنون. يا جميلة! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل، والله بالتوفيق كفيل.



... وفي صباح يوم السبت توجهت إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدي واجب التحية، تحية العيد إلى وزراء الدولة. وقد ظنّني فخامة الرئيس عراقياً لأني كنت بالسدارة، فسرّني ذلك. وكانت فرصة طيّبة عيّدت فيها على رجال كان يجب أن أذهب إليهم في منازلهم؛ وراقني أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد وهي عادة حسنة كنت دعوت إليها في الرسالة التي قدّمتها للمباراة الأدبية الرسمية: رسالة (اللغة والدين والتقاليد).

وتلفتّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير اليّ، وما هي إلا لحظة حتى كانت يد كريمة تصافحني وتقول: أنا الدكتور شوكت الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية، وقد سألت عنك مرات لأن إسمك يرد كثيراً في المخابرات التي تجري بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية والحمدلله على أن اهتديت إليك بعد التشوّف والاشتياق. ثم إستطرد فقال: إيش لون ليلى؟ (واللون في عرف العراقيين هو الحال في عرف المصريين) فقلت وأنا أبتسم: ستعرف ذلك يوم ألقي بحثي في المؤتمر الطبي عن ليلى المريضة في العراق. فقال: عجّل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء. فأخرجت ديناراً لم يكن معي سواه وقلت: إليك الدينار في سبيل ليلى! والله المستعان[1].

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التي كلّفت الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقي الزيات من كلمة تكليف فكذلك قلت، وما أكذب عليك).

* * *

أخذت أقلّب أوراقي في سكون وإطمئنان. وبعد نصف ساعة أحسست يداً رفيقة تطرق الباب، فخففت إليه في وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين. وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة في نصف الليل؟ وليتها كانت زيارة تذكر بالأيام الخوالي حين كنت أدرس الطب في باريس، وحين كنت أترك الباب بلا رتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء. إنها زيارة جرداء ستنقضي في السؤال والجواب، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية الحرمات.

* * *

دخلت جميلة أولاً وتبعتها وصيفة ليلى. دخلتا ملفوفتين، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين، وشعرت بشيء من الخجل للفقر البادي في غرفة الاستقبال، ثم تماسكت حين تذكرت أن هاتين المرأتين تفهمان بلا ريب أني طبيب غريب، وأن الوقت لم يتّسع لتأثيث العيادة والبيت.

ـ يا جميلة ما إسم هذه الوصيفة؟

ـ إسمها ظمياء، ولكن ما ذنبي عندك يا دكتور حتى تغيّر إسمي؟

فقلت: لن أذكر إسمك الصحيح في علاج ليلى، لأني لا أريد أن تغتنمي الفرصة لتصبحي علماً على حسابها يا حيزبون!

وأخذت المرأة في اللجاجة، ولكني إنصرفت عنها وإلتفت إلى ظمياء.

ـ إيش لون ليلى؟

ـ بخير، يا دكتور، وقد سرت في روحها البشاشة منذ الوقت الذي رأتك فيه ولكن في نفسها منك شيء فقلت وأنا منزعج: وما هو ذلك الشيء؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين!

فأجابت: كتب إليها كثير من أبناء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب. فقلت: هؤلاء دسّاسون، وقد آذوني قبل ذلك أبلغ إيذاء، فقد كنت خطبت فتاة في باريس وطاب لي معها العيش إلى أن تدخّل المفسدون وحدّثوها إني متأهل، وإن لي خمسة أبناء. وأنا يا آنستي رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولي رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب. فقالت: ولكن ليلى رأت في صدور كتبك أنك دكتور في الآداب فقلت: هذا تواضع مني، لأن الطبيب الحق لا يقول أنه طبيب، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبلغي ليلى فتطمئن. عندي يا آنستي ثلاث دكتوراهات: الأولى في الآداب، والثانية في الطب، والثالثة في القانون. فتهلّل وجه ظمياء وقالت: الآن فهمت ما ينشر في الجرائد من أنك تلقي محاضرات في كلية الحقوق. فقلت: هو ذلك يا آنستي، وستقرئين في الجرائد بعد حين أني ألقي محاضرات في كلية الطب.

والآن ندخل في صميم الغرض من هذه الزيارة الليلية، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف، لأني لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتي مرة ثانية، فإن العيون تترصدني من كل جانب، وسمعة الطبيب هي كل ما يملك، وأنت في الحق فتاة حسناء وأخشى أن تحيط بي من أجلك الظنون. فتنهدت وقالت: العفو يا دكتور! إن مرض ليلى هدّني ولم يبق مني على شيء من العافية فقلت وقد غاظني أن تحسبني أتغزل: إسمعي، ليس الوقت وقت دلال، أنت هنا في خدمة الواجب، أجيبي على الأسئلة الآتية بصدق وصراحة، وإحذري عواقب المداورة في الجواب.

ـ هل ترين ليلى إمرأة مصونة؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات؟

ـ ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع إمرأة أثيمة أن تقول في حقها كلمة سوء فهي مثال الطهر في بغداد، وحديثها كالعطر في جميع أرجاء العراق.

ـ وكم سن ليلى الآن؟ وكيف كان ماضيها في الحياة الزوجية؟

ـ هي في حدود الأربعين، ولا تزال عذراء.

«وعندئذ دوّنت في مذكرتي أن المرأة التي تصل إلى سن الأربعين وليس لها زوج ولا أطفال معرّضة لكثيرٍ من الأمراض، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس في المؤتمر الطبي». ثم رفعت بصري إلى ظمياء وقلت: ولكن كيف إتفق أن تعيش ليلى كل العمر عذراء القلب؟ فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت، فنهرتها بعنف، فأجابت وما تكاد تبين:

ـ كانت تحب الضابط عبد الحسيب.

ـ ومن هو الضابط عبد الحسيب؟

ـ فتى كان في الجيش العراقي، وأبوه من مصر، وأمه من لبنان.

٤

ـ ضابط في الجيش العراقي أبوه من مصر وأمه من لبنان؟ كيف إتفق ذلك يا ظمياء؟

ـ لذلك يا سيدي تاريخ...

ـ إنتظري قليلاً... قبل أن ندخل في تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب، أحب أن أسأل: هل كان حبها لذلك الضابط أول حب؟

ـ نعم يا سيدي أول حب.

ـ منذ كم سنة أحبّت ذلك الضابط؟

ـ منذ إثني عشر عاماً.

ـ تذكّري يا ظمياء أنك قلت أن ليلى في حدود الأربعين، فهل يعقل أن تظلّ عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين؟

ـ نعم يا سيدي، وما أقوله تشهد به الست جميلة، وتعرفه الخالات والعمات والجارات في شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني.

ـ ولكن هذا غير معقول، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين!

ـ أنت يا سيدي غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء في بغداد.

ـ بغداد في عينك يا ظمياء! وهل بغداد تحمي المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل؟

ـ أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب.

ـ ولكن كيف إتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين؟

ـ لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول.

«فدوّنت في مذكرتي أن الفتاة التي ترفض الزواج، ويطول بها ذلك، لا بد أن تكون أصيبت بنوبة حب، ولا بد أن يكون ذلك الحب صور لها فحولة الرجل في صورة فلسفية أو أدبية. ولكن هذا الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلى تكتمه، وما دام النساء اللائي يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة، على قلة ما نرى من النساء الغافلات. ويظهر أن موقفي سيكون دقيقاً في المؤتمر الطبي، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال في أخيلة النساء، ولكن لا بأس فهي فرصة طيبة لشرح آراء شيث ابن عربانوس في هذه القضية. على أني سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذي نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب في الأمراض العصبية».

ـ دكتور! ماذا تكتب؟

ـ إسمعي يا بلهاء.

ـ هذا جزاء من يصنع الجميل!

ـ أستغفر الله! إنما أردت أن أقول: إسمعي يا ظمياء. أنا يا بنيتي أقيد ملاحظات تنفعني في مداواة ليلى؛ ومرضها كما تعلمين عصيب، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم إستعداد، والله المعين.

«ولكن ألا يمكن أن يقال: أن ليلى مرضت في صباها بالغفوة الروحية، ولم تفق إلا في الثامنة والعشرين؟ ومن يصدق حديث الغفوة الروحية؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذي إستكشف هذا المرض الخبيث وألقيت عنه محاضرة في باريس بعد أن أدّيت الإمتحانات النهائية في الطب ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية، ولم أظفر ـ واأسفاه ـ بغير السخرية يواجهني بها زملائي في مصر ويراسلني بها أساتذتي في باريس».

ـ دكتور، ألا ترى كيف أقفقف من البرد.

ـ إسمعي يا بلهاء فما عندي لك دفء.

«وما الذي يمنع من إنتهاز هذه الفرصة الثمينة، فرصة إنعقاد المؤتمر الطبي في بغداد، لإعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية؟ إن الشواهد تحت يدي، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم إنخرطوا في سلك الكهنوت وهم شبّان، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين ثم إستيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين، ومنهم صديقي فلان الذي عرفته في حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديقي فلان الذي عرفته في رقص الكوبول سنة ١٩٣٣.

ولكن كيف أقول هذا الكلام في المؤتمر الذي يعقد في بغداد وأنا أشتغل بالتعليم في بغداد؟

الخطب سهل: أنا أتكلم في المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب والناس جميعاً يعرفون أني أحرزت الدكتوراه في الآداب».

ـ دكتور، أروح؟

ـ وأين تروحين؟ إجلسي يا بلهاء.

ـ أنا إسمي ظمياء.

«ولماذا أفضح نفسي في المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارس؟ لماذا لا أكتفي بالشواهد التي أعرفها في مصر؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس في صباه؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب؟ رحمة الله على أيامه الطيبات، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه! فمن يصدقني اليوم اذا قلت أنه كان فتى عفيفاً؟ وكيف يصدقني الناس إذا إدعيت ذلك وهو اليوم ألطف ماجن وأظرف عربيد؟!».

ـ دكتور!

ـ إخرسي يا بنت!

ـ إيش لون؟

ـ ما أدري شلون!

«إن حال ليلى في جوهره يرجع إلى فرضين: الفرض الأول أن تكون رأت في مطلع صباها صورة مسّت شغاف القلب ثم إختفت تلك الصورة، وظلّت المسكينة تترقّب ملامحها في أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء، فلمّا وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيه ملامح الحبيب الضائع، فأقبلت عليه وقد إستيقظ هواها القديم يقظة مرعبة ضجت لها بغداد؛ والفرض الثاني أن تكون أصيبت بالغفوة الروحية، ذلك المرض الخطر الذي تفرّدت بإستكشافه والذي سيجعل لي مقام صدق في عالم الطب، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة فكانت عيناها الناعستان وإبتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب».

ـ دكتور، طال مقامي عندك، وليلى ستظن الظنون!

ـ أي ظنون يا ظمياء؟

ـ قد تحسبك كالطبيب فلان الذي خربت عيادته بسبب إمرأة إلمانية كانت تزوره في العشيّات.

ـ وأنت تلك الإلمانية يا ظمياء؟ ما هذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه إمرأة شوهاء!

«وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكة رجّت أركان البيت».

ـ إعقلي يا ظمياء! أنا رجل غريب، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم. فأنت في حماية هذا التخوّف، تخوّف الغريب من قالة السوء. وسأعيش في بلدكم ما أعيش، ثم أخرج بإذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين.

ـ هل معنى ذلك أني في أمان؟

ـ في أمان يا ظمياء، سبحان الله!

ـ أنت تهينني! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال!

«وهنا دوّنت في مذكرتي أن المرأة لا يسرّها أن تكون في أمان، لأنها لا تكون في أمان الا حين تزهد فيها القلوب. وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس، فهي تحب أن يكون شرفها بفضل التصون، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق».

ـ دكتور، أروح؟

ـ وين تروحين؟ حدّثيني عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب.

ـ كانت بداية القصة في سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون، وكانت الجرائد العراقية أطنبت في وصف المعرض الزراعي والصناعي الذي أقيم في الجزيرة بالقاهرة. في ذلك التاريخ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فإستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علّها تنسى ضجيج بغداد، فرفض أبوها، وشجّعتها أمها، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء، فلم ينتصف شهر آذار، شهر الأزهار والرياحين إلا وليلى تطالع سفر الحياة على شواطئ النيل، وطن مولاي الطبيب.

٥

والحق أن ظمياء في جوهرها فتاة مليحة، ولكني أغالب نفسي فأقول أنها شوهاء، مداراة للمرأة جميلة التي تفحص أسارير وجهي بعينين كأنهما عينا العقاب، وما أدري والله كيف نجحت في إصطناع التجمّل والتوقّر وكنت طول حياتي مفضوح النظرات.

- ظمياء

- نعم يا مولاي

- كيف كان طريقكم إلى مصر يا بنيتي؟ بالسيارة أم بالطيارة؟

- لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً في سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام، ثم إخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس، وقد قضينا على شاطئ القناة ثلاث ساعات مرّت كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات.

- وهل التأمل يقصّر الوقت يا ظمياء؟

- لا أعرف يا سيدي الطبيب وانا أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقي في قناة السويس فظلّت تنشد طول الوقت وهي في حلاوة الرشأ النشوان.

- لا أعرف أن لشوقي قصيدة في قناة السويس، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفني.

- لا، يا سيدي، هي قصيدة.

- هل تحفظين منها شيئاً؟

- أحفظ المطلع:

تلك يا ابني القناة

لقومكما فيها حياة

- هذه ليست قصيدة يا ظمياء.

- ليلى تقول أنها قصيدة.

- القول ما قالت ليلى! ثم ماذا يا ظمياء؟

- كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورني في أمر المصريين الذين حفروا القناة، ومن رأي ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون في التاريخ.

- ولكنها أضرّت مصر يا ظمياء.

- هذا يا سيدي كلام الساسة لا كلام الأطباء. وهل يضرّ مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشئ من المرافق ما بخلت به الطبيعة القاسية على الإنسانية؟ إن الحياة يا سيدي الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية، وقد ضحّت مصر بمالها وسلامتها في سبيل الإنسانية، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء.

- هذه فلسفة يا ظمياء، وما تهمّني الآن، ثم ماذا؟

- ثم دخل الليل ونحن على الشاطئ وطلع القمر فتحوّل الوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب، ونظرت إلى ليلى فرأيت إنعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفتون.

- دخلنا في الغزل يا ظمياء.

- أنت الذي شجّعتني على الوصف يا مولاي.

- إسمعي، هنا سؤال مهم: هل رأيت ليلى على القناة في حال تختلف عما كنت تعهدين وهي في بغداد.

- أنا أصغر من ليلى سناً كما تعرف.

- مفهوم، مفهوم، وهل تخفى عليّ مثل هذه الفروق؟

- لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب، لولا علاقة سطحية بإبن عمي عبد المجيد.

- يظهر أنك فتاة متعبة وحمقاء. ما شأني بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع إبن عمك عبد المجيد؟

- أنا أريد يا سيدي أن أقول أني لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغيّر أسارير الفتاة حين يطلع القمر أو حين يهب النسيم، وانما فطنت إلى ذلك بعدما ثارت العواصف حول ليلى. وأقول لك أني فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول، فقد كان للقمر على وجهها أضواء وظلال يطير لها لبّ الحكيم، وقد مددت ذراعي فطوّقتها فإنعطفت عليّ وقبّلتني قبلة عطف لن أنساها ما حييت!

«وهنا تذكّرت الوجه الذي كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال، وجه الإنسانة النبيلة التي أتحفتني بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل في بغداد، وكدت أتنهّد ثم تماسكت. ولي قدرة على ضبط النفس في بعض الأحوال».

- كفى، كفى.

- تحب يا سيدي أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة؟

- إن كنت تحبين ذلك…

- أحب أن أقول لتسمع ألست جميلة، فهي تحب ذلك.

- وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة، فقد طال شوقي الى القاهرة.

- تعرف يا سيدي محطة باب الحديد؟

- أراها يا بنيتي في طيف الخيال!

- لقد أرهقنا الحمّالون…

- أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين. إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء.

«ثم سكتتُ لحظة فقد تذكّرت أني زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد، لأشهد أسراب المودعين والمودعات في القطار الذي يقوم إلى بور سعيد كل مساء. وتذكرت أني كنت أضحّي بمكاني في قطار البحر فلا أصعد اليه إلا بعد أن يدقّ الناقوس لأمتّع عيني وقلبي بالحسن الذي يموج فوق الرصيف. وتذكرت الفتاة التي إستقبلتها في تلك المحطة عند منتصف الليل في الشتاء الماضي، تلك الفتاة التي جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معي الأهرام في ليلة قمراء. تذكّرت وتذكّرت حتى كاد يفضحني الدمع، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فهو وحده يعلم ما يقاسي قلبي من الغربة بين القلوب».

- ثم ماذا يا ظمياء؟

- ثم إخترقنا شارع كامل.

- هو اليوم شارع إبراهيم.

- أفادك الله!

- يا لئيمة، فيك أشياء من دعابة بغداد!

- ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل، وكانت ليلى قد تعبت فظلّت في البيت يومين كاملين.

- وهل في الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه في البيت يومين؟

- قلت أن ليلى كانت تعبت، والحق أن ربة البيت الذي نزلنا فيه نهتنا عن الخروج، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء، والغريب لا يسلم من فضول الناس، وفي يومين إثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب. أما أنا ففرحت بثيابي ورأيت أني تجددت؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب ينافي الحياء.

وفي الحق أن ليلى بدت في تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس، فقد كان يجب أن تمشي في الجادة[٢] وهي سافرة الوجه، وكان الثوب المصري يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل. ولو رأيت ليلى في تلك الساعة وهي غاضبة لرأيت العجب العجاب، فقد توهّمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها المرموق، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق.

وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت: «إسمعي يا ليلى، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف» فسكنت ليلى قليلاً، ثم لبست المعطف فوق الفستان، ونظرت في المرآة فرأت أن حالها مقبول، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المعرض.

- ثم ماذا؟

- وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل.

- هو اليوم جسر إسماعيل.

- أفادك الله!

- يا مضروبة، هل تخرّجت في الأزهر الشريف!

- دخلنا المعرض، أو دخلت أنا ثم تبعتني ليلى، فقد كانت على غاية من التهيّب والاستحياء، ثم رأينا أفواجاً من الشبّان قيل أنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدي الطبيب.

«وهنا إبتسمت إبتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذي لزيارة المعرض، فيهم إبراهيم رشيد وإبراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شعيرة ومحمد علي حافظ ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمي ومحمد حمدي البكري وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيري، ويسرّني أن أقول: إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالي. ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكّرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية مَن في المعرض ولعلّني كنت أعثر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء، ولكن ما فات مات فأقتل نفسك إن شئت يا صريع الملاح».

- ثم ماذا يا ظمياء؟

- ثم طوّفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده.

- مات، يرحمه الله.

- يا عيني، لقد كان رجلاً لطيفاً ومن عنده إشترينا أشياء كثيرة وقدّم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم.

- ثم ماذا؟

- ثم ركبنا القطار، قطار المعرض، وكان أمامنا شاب يسارقنا النظر بعينين خضراوين، فتكلّفت الشجاعة وهممت بزجره، ولكن ليلى ضغطت على يدي فإعتصمت بالصفح الجميل.

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى إبتدأت أوقن بأني سأهتدي إلى سرّ ليلى. وقد عرفت أيضاً أنه لا بدّ لي من التجمّل والتوقّر حتى يصل الحديث إلى مداه، فقد قضيت دهري وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقاري أشنع إفتضاح. ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التي قضت بأن يطوى عنّي إلى الأبد سرّ السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندي، وجاءت الشقية إلى عيادتي بشارع المدابغ، فلما فحصتها تبيّن أنّ العلّة لها سبب مدفون، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرّس المحجب من سرائر النفوس... إنهدّت تلك السيدة على المقعد وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرّ العلّة، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى طار صوابي، فوضعت يمناها على صدري ولكن الشقية لم تمهلني وأفلتت كالظبي المذعور، وبذلك طوي عني سرّها إلى الأبد. وكانت تلك الحادثة سبباً في إنتقالي من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد.

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف: فهي عراقية، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الإنفعال؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف، وهي عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها بمعسول الأحاديث وإنما تنطلق كالبحر الثجاج؛ فإذا إرتابت في أدبك... لا أدري ما تصنع فإن الله رحمني من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق، وهو عزّ شأنه قادر على أن يردّني إلى وطني مشرق الجبين.

وجملة القول أني تجلّدت وتماسكت، فمضت ظمياء تتحدث، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود.

ـ ثم ماذا يا ظمياء؟

ـ ثم وقف قطار المعرض فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين. ودار القطار دورة ثانية قطعتها في ذهول.

ـ وأنت أيضاً تحبّين يا ظمياء؟

ـ ألست إنسانة يا سيدي الطبيب؟

«وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتي، فأفهمتها أني أنكر عليها هذه البدوات، لأن الذي يهمني هو الوقوف على سرّ ليلى؛ وأشهد أني لم أجد صعوبة في إصطناع هذا النفاق، فقد مرّنت عليه بفضل ما إبتليت بالمنافقين الذين تقدّموا وتأخرت، ويكفي ما مرّ بي من التجارب وأخشى أن تقنعني الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق».

ـ أنت يا مولاي طلبت أن أقص الحديث كما وقع.

ـ كما وقع لليلى، لا كما وقع لك يا ظمياء، فأنت في عافية وليلى هي المريضة، والحكومة المصرية لم تكلّفني إستقصاء أخبار المتيّمين في العراق، وإنما كلّفتني مداواة ليلى المريضة في العراق.

ـ فهمت يا سيدي فهمت.

ـ زين، زين ثم ماذا؟

ـ ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان.

ـ عاشقان؟ وهل يتمّ العشق في لحظة؟ هل نحن في السينما يا ظمياء؟

ـ وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى والتعبير بالعشق من عندي.



ـ شيء جميل! في أية مدرسة تعلّمت يا ظمياء؟

ـ في المدرسة التي تعلّمت فيها ليلى وهي المدرسة التي أنشأها حكمت سليمان في سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثماني، وكان حكمت سليمان مدير المعارف في بغداد، وكان تعليم الفتاة في تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون، فكانت ليلى أولى فتاة قيّد إسمها في تلك المدرسة.

«وهنا دوّنت في مذكرتي أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبي، ولعلّها تكون السبب في كشف كثير من الأسرار، فالثورة على التقاليد تحدث رجّة في المخ والأعصاب كما حدّثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب في باريس وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق».

ـ وهل درتم بالقطار دورة ثالثة؟

ـ لا، يا سيدي، فقد خشيت ليلى أن تفطن اليها العيون فنزلت ونزل الفتى؛ ولكنه أقبل عليها يقول: هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض، فإني أراها غريبة بهذه البلاد؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه، وإنصرفنا ساكتين وعرف الفتى أن سهمه طاش فمضى كاسف البال.

ـ وبعد ذلك؟

ـ مضينا بعد ذلك إلى البيت الذي نزلنا فيه بشارع قصر النيل، وكان الحديث على المائدة أشهى ما يكون، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور إسمه سعد زغلول، وكانت ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسي في مصر، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت في الكشكول لكاتب معمّم إسمه عبد العزيز البشري فيما أتذكر، وصورة أخرى للشيخ بخيث وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان، وكان الجو كله جو ضحك، ولكن ليلى لم تبتسم، ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام في ذلك اليوم.

ـ مسكينة ليلى!

ـ نعم يا سيدي مسكينة فقد قضت ليلة مؤرقة، ثم أزعجتني من نومي قبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض.

ـ ورجعتما إلى المعرض؟

ـ رجعنا، رجعنا، وركبنا القطار عشرين مرة.

ـ عشرين مرة؟ ولماذا يا حمقاء؟

ـ لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين!

ـ ورأيتماه؟

ـ ما رأيناه، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور، هم الشاهد على أن مصر من الحقول التي تنبت الجمال، وقد أمتعت عيني بمن رأيت، ولكن ليلى ظلّت صريعة الهمّ والبلبال.

ـ مسكينة ليلى!

ـ هل تسمح لي أن ألطم يا سيدي؟

ـ تلطمين؟ إنك لبغدادية ظريفة يا ظمياء، ما يهمني أن تلطمي، وانما يهمّني أن أسمع بقيّة الحديث.

ـ لم تكن ليلى تقول أنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى وإنما كانت تدّعي أنها تحب الوقوف على سرّ تقدُّم الزراعة والصناعة في الديار المصرية. وحملتها هذه



الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاي، وهي النماذج التي عرضها السيد محمد محمود.

ـ سمعت بمعروضات هذا السيد يا ظمياء.

ـ وكتبت ليلى مقالة في وصف المعرض نشرتها جريدة «البلاغ».

ـ سبحان الله! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة في حلوان.

ـ لا، يا سيدي، هي من إنشاء مولاتي، شفاها الله!

ـ آمين! ثم ماذا يا بلهاء؟

ـ قلت أن ليلى كانت تتردّد على المعرض بدعوى الإطلاع على أسباب تقدّم مصر في الزراعة والصناعة، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد وقد إستمرّت هذه الدعوى أسبوعين، ثم يئست ليلى مما تريد، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك.

ـ وبهذا إنتهت القصة؟

ـ لا يا سيدي، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض، وشبعت من الأخبار الحديثة في القاهرة، وصرّحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزية، علّها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حيّ يسمّى الغورية، فدخلنا الحمزاوي والفحامين، وشهدنا حارة إسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات فوقفت ليلى عنده لحظة، ثم إنصرفت. وفي خان الخليلي رأينا سيّدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد، فحيّتنا على غير معرفة، فردّت ليلى التحيّة بلهفة واشتياق. وأحببت أن أعرف سرّ هذه الحماسة من ليلى فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين!

ـ أعوذ بالله!

ـ تستعيذ بالله يا سيدي من ذلك؟

ـ نعم، أستعيذ بالله من شرّ العيون الخضر، فهي سبب بلائي في هذا الوجود. ثم ماذا يا ظمياء؟

ـ ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت أن زوجها أستاذ في الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسي. ونظرت فرأيت ليلى تمشي وهي نشوى من الإنشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق. وما هي إلا لحظات حتى كنا في حضرة شيخ جليل إسمه الشيخ دعّاس.

ـ الشيخ دعّاس؟

ـ نعم يا سيدي، الشيخ دعّاس، وهو الذي أنجب أحمد وإبراهيم وجلبي وسيد ومحمود، وهم زينة الرجال في بلاد النيل.

ـ رضي الله عنهم أجمعين، ثم ماذا؟

ـ ثم تعلّل ذلك الشيخ بضيق الوقت، ودعانا إلى تناول القهوة في منزله فركبنا سيّارته ومضينا إلى داره في محلّة الزمالك. ولما دخلنا أبصرنا فتاة هي قيد العيون، بل قيد القلوب، إسمها درّية، فسألنا عنها فعرفنا أنها إبنة الشيخ دعّاس، وإبنة السيدة نجلاء ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين، وإنما رأت عيونها عسلية، وهو اللون الغالب على عيون المصريات وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال.

ـ إتقي الأدب يا ظمياء، فأنت في حضرة طبيب!

ـ الطبيب يسمع كل شيء!

ـ آمنت وصدقت!

ـ ومضت درّية تباغم أمها باللغة الفرنسية. فسألت عنها فقيل أنها تلميذة بمعهد الليسيه.

(وهنا أجهدت ذاكرتي لأعرف من هي تلك التلميذة، ثم تذكّرت أنني لم أتصل بمعهد الليسيه إلا في سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك، فما يسرهني أن تكون تلميذاتي محوراً لأمثال هذه الأحاديث).

ـ نعم يا ظمياء.

ـ وبدا لليلى أن تسأل عن السرّ في إختلاف ألوان العيون، فأجابت السيدة نجلاء بأن درّية صورة لأبيها الشيخ دعّاس؛ أما إبنها فهو صورة أمه اللبنانية. فقالت ليلى: وهل اللبنانيون خضر العيون؟ فأجابت السيدة: أنا لبنانية الموطن، تركية الأصل. فقالت ليلى: ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين؟ فقالت السيدة: نعم، وهو المحروس عبد الحسيب، وهو طالب بمدرسة البوليس، وسيحضر بعد قليل.

٧

وعند هذا الحدّ من الحديث تذكّرت ليلى. تذكّرت العبارة البغدادية الطريفة التي طلت بها قلبي منذ أول زيارة، فقد قالت حين رأتني أهمُّ بالرواح: «فراقك صعب، سيدي».

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء وكانت لي سياسة أوحاها الشيطان، فقد رأيت الفتاة تقصّ أحاديث الشيخ دعّاس وزوجته نجلاء بحماسة سحرية، ورأيتها تطنب في وصف إبنتهما الجميلة، تلك الفتاة التي إسمها درّية، وهو إسم لا أدري كيف يلذع قلبي، ولكن لا موجب للمضي في سماع ما تقول ظمياء في وصف درّية فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها في ليلة واحدة. وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك أن تمّ هذا الحديث؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهي في نشوة الحديث فلا أتعب في رجعها إلى منزلي حين أشاء.

ولكن كيف أصرفها وقد إستأنست كل الإستئناس؟ يجب أن أصرفها بعلّة طبّية لتتهيأ للمرض، فقد أمسيت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاي، ولا بد للطبيب من مريض، وستعافى ليلى بإذن الله، فلتكن لي ذخيرة ألتمس بها البقاء في بغداد. وكذلك صوّبت نظري إلى الفتاة وقلت:

ـ ما هذا الذي أرى بوجهك يا ظمياء؟

فإنزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول: إيش بي يا عمّي؟

فقلت وأنا أتكلّف الحزن: سأخبرك يا بنيّتي حين أجيء لعيادة ليلى. فإذهبي الآن وإستريحي، وتجنّبي التعرّض للتيّارات الوجدانية.

فخرجت الفتاة مذعورة لا تلوي على شيء. والجمال الساذج يفتن القلوب حين يكرثه الانزعاج.

«فراقك صعب، سيدي» كذلك قالت ليلى.. فراقك صعب...، إي والله، فراقي صعب، يا ليلى، وفراقك أصعب، فمتى يكون اللقاء؟

وأويت إلى فراشي في ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات. ثم خرجت مبكراً في الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكي مبارك وإنتخاب مجلس النواب.

أعوذ بالله! ثم سألت فعلمت أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلى المريضة في العراق فتذكّرت الخطاب الخاص الذي أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع. وما أتّهم هذا الصديق بسوء النية في نشر ذلك الخطاب، فهو رجل عاش سنين في بغداد ولم ير ليلى بعينيه، فهو يحب أن يراها مع قرّائه بأذنيه، تأسياً بقول الشريف الرضي:

فاتني أن أرى الديار بطرفي

فلعلي أرى الديار بسمعي

ومضى يوم، ويوم، وأيام، وأنا طعمة الألسنة والعيون في كل مكان.

وكانت فرصة تذكّرت فيها ما جنيت على نفسي في السنين الخوالي، فقد كنت عدوّ نفسي من حيث لا أريد. أنا الطبيب الذي أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير إحتراف الصحافة والتعليم. ولولا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية، فأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف.

٨

... ومضيت أعود ليلى مرة ثانية، بعد أن قبّلت الصورة التي أدفع بها وحشة الليل في بغداد، وبعد أن قرأت الرسائل المعطّرة التي وردت من مدينة... وكذلك أعددت قلبي للرفق واللطف، وأنا في عالم الطب كالبلبل في عالم الأغاريد، لا أطرب إلا بعد مناجاة الأحلام، ولا يطرب إلا بعد أن تُوضع من حوله أرواح الأزهار. فهل تعرف معنى ذلك تلك الإنسانة التي بلغ بها العناد أن تصرّح بأنها لن تفتضح في حبّي إلا يوم يظهر أنها دفعتني إلى الخلود؟

رباه! ما أصعب تكاليف الخلود! ولكن كيف ألقى ليلاي؟ إنني أخافها أشدّ الخوف؛ فقد بدت لي في المرة الماضية على جانب من الوعورة، ولا يبعد عندي أن تكون حمقاء، فإن الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش؛ وأنا والله على إستعداد لمقابلة الشرّ بالشرّ، فإن رمتني بالحمق رميتها بالجنون، ولكن ذلك لا يقع بدون جزاء، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق.

* * *

فراقك صعب، سيدي! كذلك قالت ليلى منذ ليال فما الذي يمنع من الأدب؟ وهل كتب عليّ أن أظلّ دهري شقيّاً لا أعرف غير الرجس؟ ما لي لا أجرّب الحب العذري مرة واحدة في حياتي؟ ما لي أحرم قلبي أطايب العفاف؟

آمنت بالله! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول؟ إنك يا ربّي تعلم كيف إبتدأت وكيف إنتهيت. إنك يا ربي تعلم أني أشرف مخلوق سوّته يمناك، مع إستثناء الأنبياء، ولكني طبيب جنى عليه الأدب فسار في بقاع الأرض أنه من الفاسقين.

كيف ألقى ليلى؟ تلك هي النقطة، كما يقول لافونتين! ألقاها بالتجارب التي أفدتها في باريس، فقد وردت مدينة النور أول مرة في سنة ١٩٢٧ وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفتون، فكان أكبر همّي أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيت الأمرّين من عيش الجفاف في شارع الحمزاوي وعطفة الجمالية!

ودخلت السوربون، سقاها الغيث، وجعل الله لها لسان صدق في الآخرين، فكانت عيني لا تقع على الأساتذة، وانما كانت تقع على الطالبات، وهنّ في دروس الأدب أكثر من الطلاب. والفتيات هناك يفهمن وحي العيون، وكان يتّفق أن تلقاني فتاة بعد المحاضرة فتقول: من فضلك يا سيد، هل عندك مذكّرات عن دروس المسيو شامار؟ فأجيب: نعم، يا أنستي! فتقول: هل تتفضل فتعيرني إياها لأنسخها ثم أردّها إليك؟ فأقول: وهل لمثلي أن يرفض ما تطلب هاتان العينان! فتنظر الفتاة إليّ نظرة سخرية وتنصرف!

وحدث مرة أن قالت لي فتاة ريا الجسم كأنها من دمياط: هل لك يا سيد أن تتفضّل فتعيرني مذكراتك عن دروس المسيو مورنيه؟ فقلت: لك ذلك يا أنستي، ولكني لن أعود إلى السوربون إلا بعد يومين. فهل أستطيع أن أراك غداً عندي في الساعة الخامسة لأقدّم إليك المذكّرات؟ فأجابت بالقبول بعد أن إستفهمت عن إسم الشارع ورقم البيت.

وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهّزة بأطيب ما تملك فرنسا من ألوان الشراب، ثم مضت ثوان ودقائق وساعات، ولم تحضر الفتاة، عليها وعلى أمّها اللّعنات!

وفي ذات يوم قالت إحدى زميلاتي في الدرس أنها تجيد الرقص، فقلت إني لا أحسن منه غير «الحنجلة» ورجوتها أن تعينني على إتقان ذلك الفنّ الجميل فأجابت جواباً كله إغراء. ولكنني إشترطت أن يكون ذلك في غرفتي حتى لا يعرف أهل باريس أنني رجل «غشيم». وإنتظرت، ثم إنتظرت، ثم إنتظرت، ولم تحضر الراقصة الحسناء!

ولم تمض أسابيع حتى شاع في جميع أروقة السوربون أني فتى ماجن خليع، فكنت ألقى أطيب التحيّات ولا يجيب مجيب. والشيطان يشهد أني كنت في ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس. ونظرت فرأيت فتياناً أقل مني فتوّة وجاذبية يعيشون في ظلال الحب عيش الملوك، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام، وللغرام فنون...!

* * *

وفي ظلال هذا الروح الطيب مضيت لعيادة ليلى، وقد صمّمت على الخوض في أحاديث لا تتصل بالحب. وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا في ديار الإغتراب؟

دخلت على ليلى في ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم، فتفضّلت حرسها الله ومدّت يديها الناعمتين لمعاونتي على درج السلالم، فشعرت كأن خيوطاً من نور تجذبني إلى العلية، وقد تكلّفت التعب والضعف لأرى كيف تجذبني تلك الأنامل الرقاق. وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر في ليلة قمراء بالقصر الذي يعرفه القلب في الشارع رقم ... بالضاحية... إحدى ضواحي القاهرة الفيحاء.

رباه! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك فاّجعلها عامرة أبد الآبدين، واّجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال، بل اّحفظها واّجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون!

رباه! إن القاهرة هي الشاهدة على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة في عالم العلم والمدنية. رباه! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاّجعلها كنانتك واّحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء، وحتى يعيش فيها أبنائي وأحفادي وأحفاد أحفادي عيش النضرة والنعيم على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية.

* * *

كانت ليلى في زينتها، وكنت في عقلي! وكان في نيّتي أن أثير الجدل حول «قضية الأخلاق» التي إشتجرت فيها أقلام الخولي وعزام والزيات، وكنت أنوي أن أقرّر أن المنافقين ينجحون بإسم الأخلاق، فكيف لا ينجح بها الصادقون؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين، فالذين يثورون على الدين لا يبغضونه من حيث جوهره وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلّف الغيرة على الدين. وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق. وكان من شهوة النفس أن أعلن في حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلّفهم بالأخلاق فإذا رأوا رجلاً قوي القلب مشرق العبقرية أسرعوا فاّتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان. ومن أجل هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول في تجريحه ألسنة المتخلّفين والمنافقين. وهل سَلِمَ الأنبياء من ألسنة الناس؟

كان في نيّتي أن أصول وأجول في حضرة ليلى، فأعظم لذّة في الدنيا أن يعذب لسانك، وتقوى حجتك، في حضرة إمرأة حسناء. والكلام في هذا الموضوع يسهل عليّ بفضل ما

أضعت من العمر في دراسة علم النفس وعلم الأخلاق، وبفضل ما إبتلاني الدهر من معاشرة أهل الرياء.
ولكن ليلى إبتدرتني وقالت: هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة؟
وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبي ينخلع، فقد تذكّرت أنني رجعت عن عزيمتي في طي هذه المذكّرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات. وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك الذي أوصاني بالإعتصام بالعقل يوم سفري إلى العراق؟ وما وجه الخوف؟ إن مذكّراتي بريئة من العبث وأنا أعيش في بغداد عيش النساك، وإن لم يكن لي فضل في هذا التنسّك، فإن الحفلة التي كرّمني بها أدباء بغداد جعلتني ممن يشار إليهم بالبنان، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكّر الأحلام القديمة، أحلام القاهرة ومصر الجديدة وباريس.
ثم تشجّعت فقلت: وماذا في مجلة الرسالة؟ فقالت: أن الاستاذ سعيد العريان يتحدّاك. فبلعت ريقي، وحمدت الله. وهل يؤذيني أن يتحدّاني كاتب من الكتّاب؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيّبون المرور في طريقي، وحين كانت مقالاتي في جريدة البلاغ كالسيف المصلّت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين. يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرّهم ويشرّفهم أن أهجم عليهم في جريدة البلاغ. ولكن واأسفاه! أنا اليوم أعيش في قفصين من الفولاذ. وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال: تذكّر يا صديقي أنك أصبحت موظفاً في حكومتين، وأن مركزك دقيق؟

٩

خرجت من عند ليلى وقد إنتصف الليل، فما كدت أبلغ الجادة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفي في الدربونة[٣] فإلتفت فإذا هي ظمياء.
ـ دكتور، متى أرجع اليك؟
ـ حين تشائين يا ظمياء، ولكن ما الموجب لهذا الإستعجال؟
ـ هل نسيت البقيّة من قصّة ليلى مع عبد الحسيب؟
ـ ما نسيت. إرجعي إليّ مساء الغد يا ظمياء، ومعك ماعون من الكبة الموصلية[٤].

* * *

لا موجب للنفاق في هذه المذكرات، إن ظمياء فيما يظهر تتشهّى أن تتكلم في عبد الحسيب؛ وأنا فيما يبدو أتشهّى الكلام عن درّية، وأكرّر ما كتبته من قبل: (إني لا أعرف كيف يلذعني هذا الإسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء، فأنا شاعر مقلّ ولكن الإقلال لا يمنع من التشرّف بجنون الشعراء. ولعلّ الإقلال أدلّ على الجنون، وإلا فما الذي كان يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعري حديث الأدباء في سائر البلاد؟
درّية! درّية! ما أعذب هذا الإسم! وما أشقاني في (إستلطاف) الأسماء!

* * *

لقد إنزعج صاحب المنزل حين رأى الحمّالين من الأكراد ينقلون أثقالي وبالَغَ في التلطّف ليردّني إلى المنزل، ولكن هيهات فأنا طبيب أفسده الأدب والطبيب الفاسد لا يطاق.
أنا أعرف أني خاصمت نائباً، ولكن يعزّيني أنّ نوّاب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية، فلن ينالني شرّ من هذا النائب على الاطلاق. وسأرجو الأستاذ معروف الرصافي أن يصلح ما بيني وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق في سبيل ظمياء؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى وهي أيضاً ستحدّثني عن درّية. ويا لوعة القلب من طيف درّية! فهل يتلطّف الحظ فيمتّعني بهوى إمرأة تحمل هذا الإسم الجميل؟!
إنّ أحزاني لا تحملها الجبال، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم، فهو يسوق إليّ موجبات الإبتسام، أنا الرجل الحزين الذي لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين، وكيف أفرح وقد طلبني أبي يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل اليه حتى بكته النائحات؟
إنتظرت ظمياء في المنزل الجديد وأنا محزون، وأشهد أني مكره على تأدية هذه الخدمة الوجدانية، فما أعرف كيف يصير حالي مع ليلى، ولعلّها تعافى ويمرض الطبيب!
ودخلت ظمياء وهي ترغي وتزبد.
ـ هل عرفت ما صنعت المرأة جميلة؟
ـ ماذا صنعت؟
ـ لقد مزّقت قمصانك بعد أن غسلتها وكوتها.
ـ عجيب! ولماذا؟
ـ لأنها قرأت في مجلة الرسالة أن إسمها جميلة وإسمها الحقيقي هو ...
وعندئذ ضحكت ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد.
إن تلك المرأة لم تعرف إحساني إليها بتلك التسمية، فقد خلعت عليها إسماً أحبّه أصدق الحب ورحمتها من الإسم الذي كانت تحمله، لأنه يقرّبها من شيخ أبغضه أشد البغض، ويكفي أن يكون إسمها وإسمه مبدوءين بحرف الحاء!
تلك المرأة حمقاء! ولكني لن أنسى معروفها عندي، فقد كانت أول امرأة خدمتني في بغداد، ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء.
ـ ظمياء.
ـ إي، مولاي.
ـ لا أريد أن أسمع إسم هذه المرأة مرة ثانية، ولا أحب أن أراها بعد أن مزّقت قمصاني.
ـ وأنا أكره لسيدي الطبيب أن يتّصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين.
ـ تغتابني؟ وما عساها أن تقول؟
ـ تقول أنك تحب ليلى.
ـ أنا أحب ليلى؟ وهل جننت حتى أحب إمرأة عليلة لا تملك من شواهد الحياة غير صوت بغوم وطرف يشيع فيه التكسّر والنعاس؟
ـ إيش لون؟
ـ ما أدري يا ظمياء.
ـ الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب.
ـ أو قصّة درّية.
ـ قصّة عبد الحسيب.
ـ قصّة درّية، قصة درّية.
ـ وهل تكره قصّة عبد الحسيب؟
ـ قصّي عليّ حديث الأخوين: درّية وعبد الحسيب.
ـ وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء، فرأت في السياسة الأسبوعية مقالة في رثاء أستاذ مستشرق إسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب إسمه طه حسين. وتدخّل الشيخ دعّاس ليشرح المراد من الإستغراب والإستشراق.



١٠

أقف قليلاً حتى أستعدّ لتدوين ما سمعت من ظمياء. وأشهد أني سمعت بقية حديثها وأنا كاره، لأن إسم عبد الحسيب أصبح يزعجني، فهو الحبيب الأول، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثاني، وحماسة ظمياء في سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدي، لا قدّر الله ولا سمح. وهل أملك زمامها إلا إن وصلت بها إلى ساحل العافية؟ كتب الله لها السلامة، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح!

ومن واجبي نحو نفسي أن أنصّ بصراحة على أني لست لئيماً كل اللؤم في هذه القضية ـ وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمّارة بالسوء، إلا ما رحم ربي ـ فأنا أحب أن تعافى ليلى لأتفرّد بهواها، ولكني مع ذلك أشعر في بعض الأحيان أني أخدمها بإخلاص، فإنه يعزّ عليّ، والله، أن تعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر، وصوتها الرخيم. يعزّ عليّ أن تعطب مثل تلك الإنسانة وإن خلَت منها يدي، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوي إمرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها. وقد وقعت لي من ذلك حوادث سيطول عليها ندمي، حين أثوب إلى رشدي، وأنا الطبيب الآثم الذي زعزع عروش السعادة في كثير من البيوت.

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمني؛ وأشعر حقاً وصدقاً أني مستعد للتضحية بنصيبي من هواها؛ ولكن ما الذي يمنع من الجمع بين المزيتين: عافيتها وسعادتي؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتي بلا بغي ولا عدوان. والخلاصة أني أريد أن يُنسى إسم عبد الحسيب، ولكن كيف؟ إن قصته تهمّني جداً، لأنها ستعلّمني كيف أسوس ليلى، وهذا بيت القصيد، فقد أصبح مفهوماً عندي أنه كان ساذجاً لا يعرف ما يأتي وما يدع. وكان مصيره أن يحرم عطف ليلى، فيمرض هو في مصر، وتمرض هي في العراق، وما أحب أن أكون ثالث المرضى!

يضاف إلى هذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درّية أخت عبد الحسيب؛ وهذا الإسم يهمّني جداً، ولا أعرف السبب في ذلك، ولعلّي أعرف بعد حين، فقد تتذكّر الإنسانة التي تحمل هذا الإسم الجميل أن الفتى الذي كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر وإختال في شارع فؤاد. ولعلّها تمرض هي أيضاً فيدعى لها الطبيب الذي يداوي ليلى المريضة في العراق.

درّية، متى تمرضين؟ إخص عليك! بل متى تتصنّعين المرض لأراك ـ في غير ريبة ـ ممدّدة على السرير؟ متى؟ متى؟ إن بلائي سيطول!

* * *

أليس من الغريب أن يكون هذا حالي في العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي؟ إن هذا الدليل على ضعف القدرة البشرية، إن كان ذلك مما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون. جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه، والأمر للهوى.

ـ يابا، يابا.

ـ نعم، يا عمي.

ـ لك أعداء في الشام، وسينصرك الله عليهم.

ـ طيّب، طيّب! (وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في الشام أو لبنان؟)

ـ ولك أعداء في مصر، وسينصرك الله عليهم، قل آمين.

ـ آمين، آمين!

ـ ولك في العراق فرد عدو (يعني عدواً واحداً).

ـ طيّب.

ـ ويجيء إليك فرد مكتوب.

ـ من وين يا عمي؟

ـ من بغداد.

ـ خير، خير.

ـ وأنت تحب فرد إمرأة، وأكو[٥] ناس يحسدونك.

ـ أكو خوف يا عمي؟

ـ ماكو خوف، ولكن إحترس.

فنفحت الرجل درهماً[٦] ومضيت؛ وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً يناديني فألتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إليّ خطاباً فعجبت من أن تفضحني ليلى إلى هذا الحدّ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة:

شيء طريف حقاً! وأي ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتي موزّعة بين شوارع بغداد، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عني في شوارع بغداد؟

إن مرسل هذا الخطاب لا بد أن يكون أظرف الناس، وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللّطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم ولكني ما كدت أفضّ الظرف وأنظر الخطاب حتى إنزعجت. فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهاني عن عيادة ليلى،

ويهددني بالقتل... (أمري إلى الله لا إلى الهوى!)

ورأيت أن أحتاط لنفسي فذهبت أستشير صديقاً بالمفوضية الفرنسية سبقني إلى العراق بسنتين؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة وأكّد لي أن العراقيين لا يعرفون المزاح في هذه الشؤون. وبعد ساعة من تسلّم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة، فكان أول كلامه بعد ردّ التحية أن قال:

ـ إيش لون ليلى؟

ـ أهدّد من أجلها بالقتل!

وقدّمت إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون، ثم إبتسم فجأة وقال:

ـ ولكنّه صفح عنك!

ـ صفح عني؟ وكيف؟

ـ ألم تقرأ هذه الجملة؟

ونظرت فإذا في نهاية الخطاب «ولكنّي عدلت عن هذا الخطاب لأني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً في الطب، وذوقاً دقيقاً في الأدب» فعجبت من أن تفوتني هذه الجملة، ولكن يظهر أن إنزعاجي صرفني عن إستيعاب الخطاب؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك. عافى الله قرّاء هذه المذكّرات من الأسواء!

ولما إطمأننت إلى صفح غريمي في هوى ليلى تشجّعت وقلت: ومع هذا فأنا لا أبالي أحداً، وقديماً قال جميل:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي

وهموا بقتلي يا بثين لقوني

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية

يقولون من هذا وقد عرفوني

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم: يجب أن تثق يا دكتور بأن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك.

١١

... وبكّرت إلى منزل ليلى بكور الندى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح: فوجدت الشقية في الفستان المصري الفضّاح الذي زارت به معرض القاهرة في ربيع سنة ١٩٢٦، وكان يجب على ذلك الفستان أن (يذوب) بعد أن (ذابت) به أكباد وقلوب، ولكنها حفظته تذكرة لحبها الأول، الحب المشئوم الذي أورثها الضنى والذبول، الحب الذي عجز عنه الأطباء والذي أجاهد في خلاصها منه بحب أقوى وأعنف، إن كانت الصبابات القديمة أبقت في عزيمتي ذخيرة للجهاد... وقد إهتاجت الغيرة في صدري حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطم ليلى على خدها الأسيل. ثم تراجعت حين تذكّرت أن بلواها من بلواي. وهل كان حبي في بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبني ليلى أول حب؟ إن المسكينة تعرف أن طبيبها من قدماء المحاربين، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبت عيناه من نضال العيون. فليكن أنسها بحبي أنس الجريح بالجريح، ولتفهم أني أشفيها من جواها لتشفيني من جواي.

وقديما قال الشاعر:

يا خليلي والرفيق معين

أسعفاني ببعض ما تملكان

أبتغي أسيا فقد عيل صبري

من توالي الوجيب والخفقان

أبتغي صاحبا توله قبلي

وشجاه من الجوى ما شجاني

فلقد يسعف الجريح أخاه

ويواسي الضريب في الأحزان

* * *

وبعد تناول ما تيسّر من الصبوح خرجنا في سيارة إلى بهو أمانة العاصمة، فترجلّت عند باب المعظم لتدخل وحدها، ومضيت أحمل آمالي وآلامي، فلما وصلت إلى مدخل البهو إعترضني أحد الضباط قائلاً: سيدي هذه الحفلة خاصة بالأطباء. فقلت: وأنا طبيب ليلى. فأبتسم وقال: تفضل، تفضل.

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذي أفسح الطريق لطبيب ليلى فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمرور، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق.

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون، فنظرت في أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التي تنطق أسارير وجهها بأصدق معاني الكرم والنبل، عقيلة الرجل الشهم الذي يمثل المروءة المصرية في العراق.

أما أنا فأخذت مكاني بين الدكتور عسيران والدكتور علاوي. وكنت ـ مع الأسف ـ ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشرّ للأستاذ علي الجارم، فقد كتب في منهاج الإحتفال أنه (شاعر مصر) وأنا أبغض الألقاب الأدبية. فلما وقف ليلقي قصيدته لم أصفّق، وأعديت من حولي بروح السخرية فلم يصفّقوا، ولكن الجارم قهرني وقهر الحاضرين جميعاً على أن يدموا أكفّهم بالتصفيق.

وغاظني أن تصفّق ليلى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسي، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية. ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرؤوس، ولكن ماذا أصنع وقد سبقني إلى الأستاذية بأعوام طوال؟

وأنا والله أظلم نفسي بهذا الكلام، فما أذكر أبداً أني حقدت على إنسان. وما أذكر أبداً أني عرفت معاني الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذي يتسفّل فيرفع الأدعياء. وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات، وحاربته في وزارة المعارف يوم رأى الاستاذ أبو بكر إبراهيم أن يكتب في نشرة رسمية أنه أمير الشعراء. وقد عرف الجارم خطر ما أصنع، فكان هو أيضاً يحاربني في مكتب تفتيش اللغة العربية، ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق.

فيا أيها العدوّ المحبوب الذي إسمه علي الجارم، تذكّر أنك كنت حقاً وصدقاً شاعر مصر في المؤتمر الطبي العربي، وستمرّ أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق.

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها في العراق وأنك كنت خليفة شوقي في المعاني وخليفة حافظ في الإلقاء؟ إنني أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك. وهل أنصفتني مصر حتى تنصفك؟ هل أنصفتني مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاي؟ يرحمني الله ويرحمك، فعنده وحده جزاء المجاهدين.

لقد آذاني معالي السيد أرشد العمري، وكظمت غيظي فلم أسمعه ما يكره، وقلت في نفسي: إن الرجل تصوّر أنني أهنته فسحب مني الدعوة والجروح قصاص. وقلت: هم سيقضون السهرة في الرقص وسأقضيها في التأليف، وأنا أجد لذّة ممتعة حين أراني أجدّ في وقت يلعب فيه الناس. وتذكّرت أني أشغل مطبعتين في بغداد، وأن من الخير أن أعتكف في المنزل فأحضّر بعض الوقود لجحيم المطابع وكذلك إطمأننت إلى الزهد في ليلة بغداد التي وعد بها المؤتمرون!

* * *

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة؟ هي دعوة لسياحة طريفة في ضواحي الكرخ وبغداد، نتفرّج بها على أسالة الماء، وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق، ولم أر في بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلّمين العالية وكلية الحقوق وما تيسّر من سواد العيون.

وسرت مع السائرين للتفرّج على أسالة الماء وأنا أرمي إلى غرضين: الأول الترويح عن النفس، والثاني كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج.

فهل روّحت عن نفسي وأعددت مواد البحث المنشود؟ ما صنعت شيئاً من ذلك، وإنما دارت الأرض تحت قدمي حين رأيت صاحبة العينين، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية في تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمير، وكنت أنظّم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين. ومن العجيب أن أمري لم ينكشف؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أنني كنت المستمع الواعي، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تُسقيان من دجلة لا من الفرات. ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل!

* * *

ومضينا فتناولنا الشاي والفاكهة فوق العشب الأخضر وبين الاشجار التي أذوتها أرواح الشتاء، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم:

على بلد المحبوب ودّيني
زاد وجدي والبعد كاويني

فكانت بلد المحبوب عندي هي المائدة التي تجلس عليها صاحبة العينين ولكن أين من «يودّيني» هناك؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بيني وبينها غير ثلاث خطوات! ثم قال الصوت:

يا مسافر على بحر النيل
أنا لي في مصر خليل

فرمقتني صاحبة العينين بنظرة حنان. فمن الذي أعلمها أني نشأت في ديار النيل؟ من أعلمها ذلك وعلى رأسي سدارة، والمصريون كلهم مطربشون! وهممت بالتسليم عليها، ولكن صدّتني العصابة التي كانت تحرسها مني، وصدّني أن مكاني كان قريباً من مكان رئيس الوزراء. ثم تقوّض المجلس وإنفضّ الناس. والدنيا إجتماع وإفتراق.

* * *

كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية في المساء؟ إنها ستكون بالسهرة البغدادية التي وعد بها المؤتمرون وأنا ممنوع من سهرة بغداد. ولكن مَن الذي يمنعني؟ هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالي أرشد العمري. أهلاً وسهلاً بمعالي الأمين! أأنت الذي يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب في قديم ولا حديث! أنت مهندس بغداد، وأنا أديب بغداد، وسترى لمن يكون الخلود...

* * *

وأخذت أفكر فيما سأصنع، فهذه الظبية ستكون في المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب في رياضة العصابة التي تحرسها مني!

وأنا قد تعلمت الرقص في باريس وأخشى أن أنساه، وحياة العلم مذاكرته، كما قال القدماء. وهل من الإثم أن أهتمّ بمذاكرة ما تعلّمت؟ وهل أنفقت من الوقت والمال في سبيل الرقص ما أنفقت لتضيع مني فرصة لن تعود من فرص بغداد؟ ولا بدّ من حضور هذه السهرة. لا بدّ مما ليس منه بدّ.

* * *

ولكن كيف ألقى معالي أرشد العمري وهو غضبان؟ أنقف فتناوش ونتضارب؟ وهل أرسلتني مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال؟

لو كانت المسألة بيني وبين هذا الرجل مسألة شخصية لضاربته وقاتلته بلا تهيّب، وما أحسبه يزعم أنه أقوى مني، ولكن المسألة أني مصري وهو عراقي، وأنا أنفق دمي في خلق الصلات بين مصر والعراق، وإقامتي في بغداد أقنعتني بأن مصر لا بدّ لها من مودة العراق، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذي يسلم فيه المصريون من أذى الناس، وهذه العواطف ليست جديدة عندي، وإنما تلقّيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرّس التاريخ القديم بالجامعة المصرية، فقد حدّثنا عن مودّات صوادق أقامها الحلف الشريف بين المصريين والبابليين وما جاز في عهد الجاهلية لا يستحيل في عهد الاسلام، إلا إن نكون من الأغبياء.

وتذكّرت أن بغداد تحوطني بأشرف معاني العطف، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد، وهو أكبر مني سناً ولعلّه أكثر تجربة، والتحامل عليه ضرب من العقوق وتذكّرت شعار مصر وشعار العراق. أما شعار مصر فهو: «أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا».

وأما شعار العراق فهو:

سيوفنا قاطعة للّي يقابحنا
ورقابنا قنطرة للّي يسامحنا

وتذكّرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس في السهرة وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجرّ إلى الزكام، وأنا مدرّس، والمدرّس المزكوم منظره سخيف، فما الذي يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه في السهرات. هذا حلّ موفّق، ولكن لا بدّ من الإحتياط، والإحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الإحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول، ومذهبهم هو أن تحتلّ أولاً، ثم تفاوض بعد ذلك!

* * *

كان طريقي من باب المعظم إلى بهو أمانة العاصمة يوحي الشعر والخيال فقد كانت ليلة عيد، وكان القمر ينظر إليّ في ترفّق كأننا في سنتريس، ولكن صدري كان مكروباً بعض الكرب: فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهي موعد غرام، وهي في هذه المرة قد تكون حومة قتال.

مشيت مشية المتمهّل لأجتلي طلعة القمر، أو لأؤخر الشرّ لحظات. فلمّا دخلت البهو وجدته خالياً، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقت الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلي الذي تفكر المقادير في شغله بالحب، وجدته كالغادة التي تنتظر العاشق الصوال، وجدته كالكأس التي تنتظر ضريم الصهباء.

دخلت وحدي وتلفتّ فلم أجد أحداً، وبعد لحظة لمحت شبح معالي الأمين وهو يتمرّن على الطواف قبل قدوم الحجيج! وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إليّ عدواً فقلت: هذه طليعة الشر، وتأهّبت للصيال. ولكن الرجل أخلف ظنّي كل الإخلاف، فقد حيّاني أجمل تحية، وأخذ يدي برفق فدلّني على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام، فقلت: سيدي، هل لك أن تذكّرني متى تلاقينا أول مرة؟ أتراني عرفتك في القاهرة أو في باريس، ذكّرني فقد نسيت!

فأجاب في لطف:

ما أذكر يا مولاي أننا تلاقينا قبل اليوم، وانما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة، وللمصري على العراق حقوق الأخ الشقيق.

فرفعت الكأس وقلت: تعيش بغداد، ويحيا العراق!

وسألت بعد ذلك عن إسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور، وكذلك إستحال على معالي أمين العاصمة أن يلقاني بغير الابتسام.

* * *

نحن الآن في بغداد، في ليلة ما رأى مثلها الرشيد، وإن تعب الواصفون في التذكير بليالي الرشيد. هي ليلة بغدادية لا قاهرية، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب، ويختلف حولها الفقهاء؛ أما بغداد فتعرف الليالي الساهرة عن الآباء والجدود. وهي ليلة سيذكرها من رآها وستحتلّ أقطار ذهنه إلى اللحظة التي يعاني فيها سكرات الموت؛ هي ليلة تمثل الفتوّة العراقية وتذكّر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت.

كان الناس كلهم في سماحة الملوك، وكنت وحدي أبخل الحاضرين، فقد سألني رجل عظيم متى أرقص، فكذبت عليه وقلت لن أرقص، مع أني ذهبت إلى ناحية قصية وراقصت ثلاث فتيات وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب.

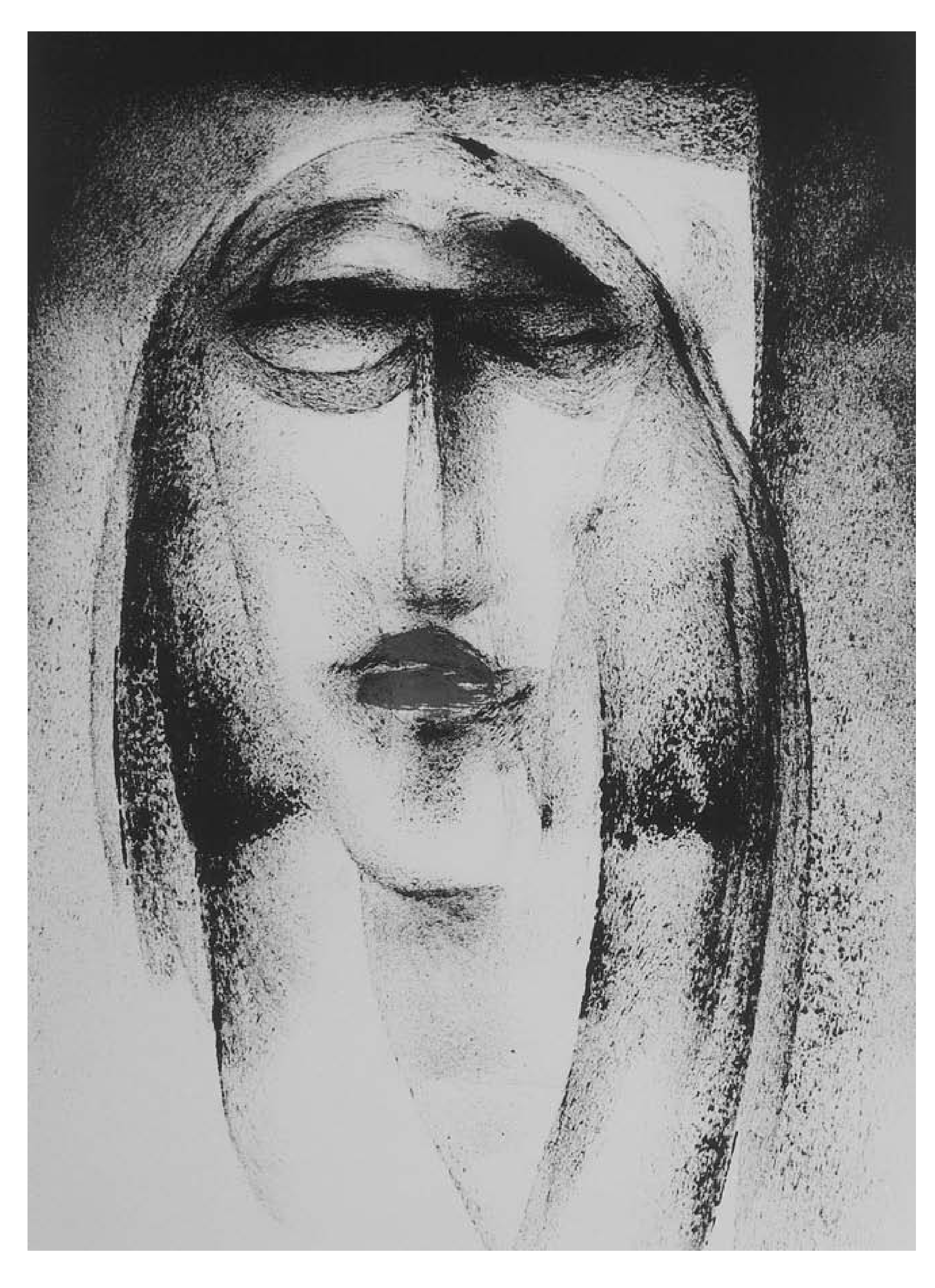
لا أدري والله ماذا صنعت في تلك الليلة، وانما أذكر حادثتين: الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص، فقد إرتفعت الأصوات: يحيا الدكتور زكي مبارك! وكان الاستاذ علي الجارم بك بين الحاضرين فإنتظرت أن يهتف بإسمي فلم يتردّد كما كنت أتوقّع، وإنما هتف هاتف الصديق؛ ثم شقّ الصفوف إليّ فعانقني وهو يقول: أنا فرحان لك يا دكتور زكي! فرحان لك يا أخوي، فرحان لك يا حبيبي، فرحان لك يا نور العيون، يا زهرة مصر في العراق.

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا في قليل من الأحيان. (ولا مؤاخذة يا جارم بك، يا حبيبي يا نور عيوني، يا أحلى من ملح رشيد!).

أما الحادثة الثانية فهي طرفة لا تقع من رجل سواي: فقد عثرت في الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية، ولكنها لا تصلح لأن تكون

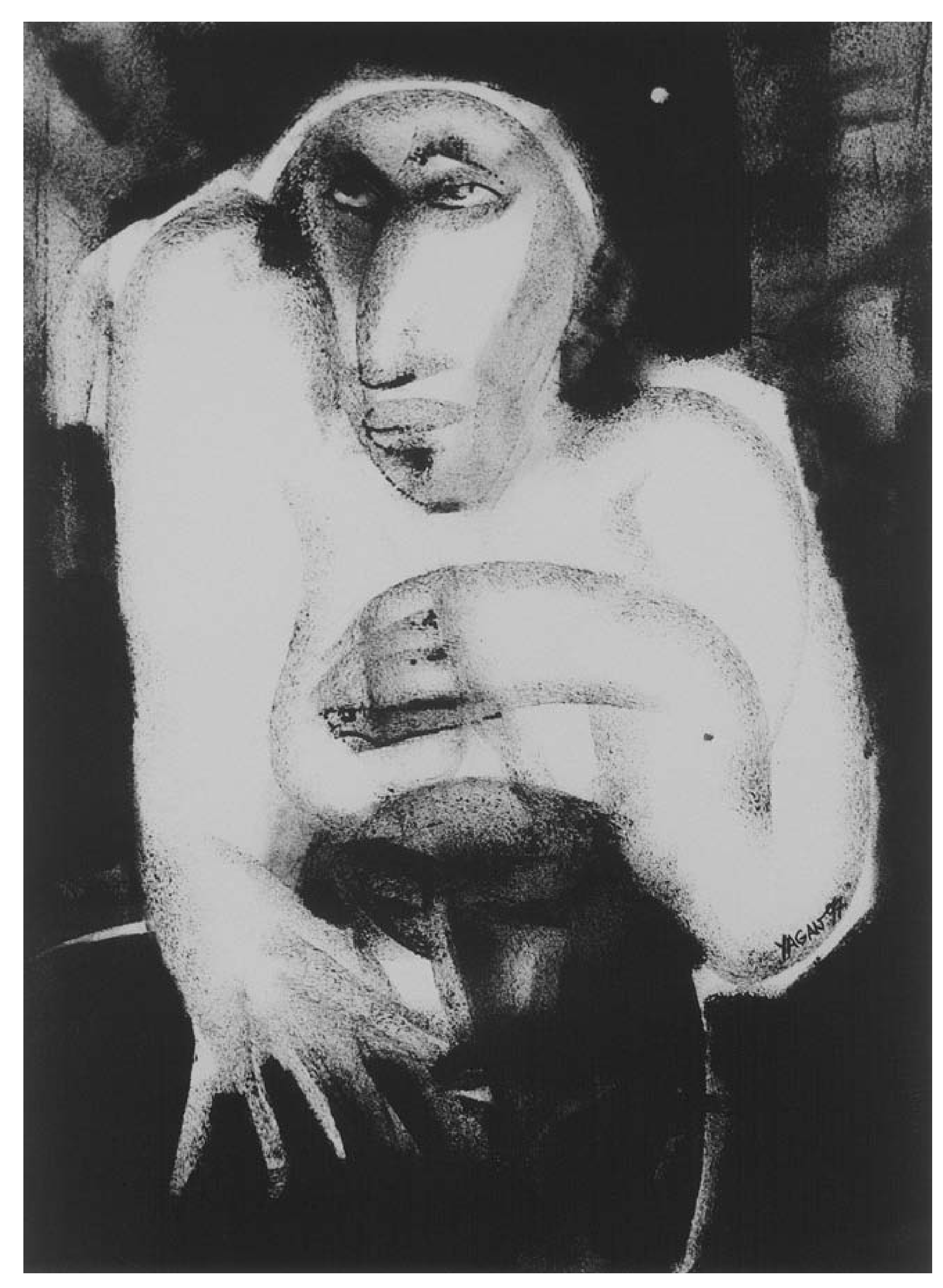


غادة في مرقص، فقلت في نفسي: ما الذي يمنع من التصدّق على تلك الفتاة بقبلة أو قبلتين؟
وأنا في الحقيقة «رجل إنسان» كما يعبّر أهل القاهرة، أو «رجل آدمي» كما يعبر أهل دمشق وأهل بغداد. وما أذكر أبداً أن سائلاً سألني وخيّبته، وأنا لا أستحي من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع؛ وقد أكرمنا الله بالغنى، فمن اللؤم أن نكون بخلاء.
طافت هذه الخواطر بنفسي وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت: أن ليلتي هذه لن تخلو من سيّئات، ولا بدّ من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات، فتوكّلت على الله وأقدمت. سلّمت على الفتاة فإستراحت للسلام، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني. وقبّلت يدها فابتسمت. فقبّلت جبينها وخدّيها، ثم قبّلت جبينها وخدّيها، وانصرفت.
ولكني لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح: يا دكتور مبارك! يا دكتور مبارك! فإلتفتّ مذعوراً فإذا سكرتير مجلس الوزراء. فقلت: وقعت الواقعة وحقت الفضيحة، وجمعت أشتات قواي وقلت: نعم يا سيد! فقال: لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقي. فقلت: وماذا قال شوقي؟ فأجاب أنه قال:
نظرة فإبتسامة فسلام
فكلام فموعد فلقاء
فهو قد فرض أن تسبق القبلة بستة أشياء، وأنت قبّلت بدون مقدمات فقلت: يا سعادة الأستاذ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء. إن شوقي قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ما عرف الناس، ونحن اليوم في عصر اللاسلكي والطيران، فلا تلمني إن قبّلت بدون مقدّمات، فمن العقل أن نتخلّق بأخلاق الزمان.
طابت السهرة وطابت ثم طابت، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقني عن طريق مؤلّفاتي، وسيكون من الذين أقبل من أجلهم ثري بغداد يوم أفارق بغداد، وصداقة الأرواح شيء نفيس، ومودّة العقول من ذخائر الرجال. كانت ليلتنا كما قال إبن المعتز:
ثم إنقضت والقلب يتبعها



١٣

ويجيء اليوم السادس وهو رحلة إلى سدّة الهندية وأطلال بابل. وأصل إلى القطار في آخر ثانية، فقد كنت في شواغل غرامية عاقتني عن مراعاة الموعد؛ ولكن حظي كان سعيداً، ولا أذكر كيف، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصباح.
ويمرّ القطار على قرية إسمها الإسكندرية فأقول: لعلّ هذه هي البلدة التي يُنسب إليها أبو الفتح الاسكندري الذي يروي عنه عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان؛ وأملأ عينيّ من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة في الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفني).
ثم يقذفنا القطار إلى سدّة الهندية: وليتنا غرقنا هناك! وسدّة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات؛ وللفرات فيها هدير جذّاب يذكّر بهدير النيل على الرياح المنوفي بالقناطر الخيرية. وقد وقفت على سدّة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطني، إن كان لي إلى أرض الوطن معاد... لا تحزن يا قلبي، فليست هذه أول غربة، فقد كنت غريباً في كل أرض حتى في سنتريس! لا تحزن يا قلبي، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء، لأن الغريب يؤدّي إمتحاناً في كل لحظة، وتدرسه الأعين في مكان، ويؤدّي حساباً إلى كل مخلوق، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون. لا تحزن يا قلبي، فكل غيم يتلوه صحو وكل ليل يعقبه صباح. لا تحزن يا قلبي، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك، وسأكّفنك بدموعي إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب. لا تحزن يا قلبي، لا تحزن يا قلبي! ما هذا؟ ما هذا؟ أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع؟
وإلى أين؟ حدّثني إلى أين؟ إلى أين يا جاهل؟ فأنت تجمح إلى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو، وكيف تقرع الكأس بالكأس، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث. إلى أين؟ حدّثني إلى أين؟ وهل لك وطن أيها القلب؟
حدّثني أين وطنك فقد نسيت! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التي تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التي قطعت حبل الودّ لأني دعوتها لزيارتك متنكّرة في بغداد؟
أين وطنك يا قلبي؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضي معك لإيه. أهو مصر؟ كذبت، ثم كذبت، فلو عرفتك مصر حقّ معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق، ولكنك في مصر منبوذ مجهول. قلبي! قلبي! رحمة الله عليك، فقد سعد ناس بالرفق المزيف،



وشقيت أنت بالرفق الصحيح. وقد وصل ناس لأنهم كذبوا، وتخلّفت أنت لأنك صَدَقْتَ. ونَعِمَ ناس لأنهم خانوا، وشقيت أنت لأنك وفيت.

قلبي! قلبي، أحسن الله اليك!

أنظر يا جاحد! فها نحن أولاء في رحاب أسد بابل؛ وهذه صاحبة العينين، أما ترى يا قلبي؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تنحي زوجها بعنف لتظهر في الصورة بجانبك؟ إعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر في صورة عالمية في رحاب أسد بابل وفي جوار صاحبة العينين. إعترف بأنك كنت في إحدى لحظاتك أسعد القلوب.

مولاتي صاحبة العينين: أعترف بأني آذيتك بعض الإيذاء، أو كل الإيذاء؛ ولكنّ الشاعر مغفور الذنوب، لو تعلمين، وقد قرأ الناس مذكراتي في مجلة الرسالة فعرفوا من أنتِ. فهل أطمع يوماً في أن تعرفي من أنا؟ وهل يعرف زوجك المفضال أنني شاعر لا يهمّه غير أنس الروح بالروح؟

المهمّ عندي يا مولاتي أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبت لندن وباريس وبرلين، وأن في بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والمقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء.

مولاتي صاحبة العينين: لست بالرجل الفاجر، كما يزعم المرجفون، وإنما أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبّب العرب في بلادهم بالإشارة إلى ما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق.

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل في طريقي إلى مصر، مصر التي فيها الزمالك وحلوان؟ مصر التي فيها شارع فؤاد، والتي فيها الزيات ومحمد الهراوي ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذي اسمه عبدالله حبيب؟ مصر التي فيها أحمد فريد رفاعي وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولي وعبد الحميد العبادي وأحمد أمين؟ مصر التي فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد؟

مولاتي صاحبة العينين: أنا أشرف من العصابة التي حرستك مني، فإسمحي لي بتقبيل قدميك قبل أن أموت.

* * *

ولكن... ولكن... ولكن أينسيني حديث العينين وصاحبة العينين، ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية؟

إن تلك الزيارة تمثّل روح العصر أصدق تمثيل، فقد كان المفروض أن يحلّق في الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبي، وكان المظنون أن لا تظهر هذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء. ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون إمتطاء الطيارات حتى خشينا أن لا يمر ذلك اليوم بسلام.

وما كان يهمّني أن أشترك في هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجّلتها في كتاب (ذكريات باريس)، ولكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات، ثم هالني أن لا أرى غير جماعة من «الخناشير» كلهم شعث غبر كأنهم قدموا من البيداء.

ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع. ومع ذلك صممت على الإشتراك في هذه النزهة، ولكني لم أفلح، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش. ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة، فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلاً يقول: أتريد أن تطير يا دكتور؟

ـ نعم يا سيدي، أحب أن أطير!

فدعاني إلى سيارته فركبت ومضينا إلى ناحية قصية فطلب طيارة وقال: «هذه في خدمتك فادع إلى مصاحبتك من تشاء» فنظرت فإذا سيدة «تائهة» فأخذتها معي وطرت. وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها في إنتظاري فركبت معه إلى المقصف وأجلسني مع جماعة من الضباط. ثم قال بعد تناول الشاي والحلوى والفاكهة: «خذ حريتك يا دكتور وطوف حيث شئت».

فلما تركته كان أكبر همّي أن أعرف من هو، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزي باشا رئيس أركان الجيش. ومع ذلك يعجب ناس حين يرونني أطيل القول في الثناء على العراق وأهل العراق.

* * *

إنتهت أيام المؤتمر، سقاها الغيث، ولكن جدّ ما لم يكن في الحسبان، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هي المدينة التي وُلدت فيها ليلى المريضة في العراق. وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل، ولكن ليلى لم تحدّثني عن وطنها الأول، ولم أسأل عنه ظمياء، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضي مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندي بالعطر والريحان، الثرى الطاهر الذي عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القدّ الرشيق.

إلى وطنك يا ليلاي، إلى البصرة، إلى النخيل، إلى شط العرب الذي تحترب في سبيله أمم وشعوب، إلى وطن الجاحظ، إلى وطن المبرد، إلى وطن مولاي الحسن البصري أمتطي القطار في ظلام الليل.

١٤

إلى البصرة، إلى البصرة! إلى المدينة التي تجري من تحتها الانهار. إلى مهد ليلى يطيب الإسراء. ولكن لا بدّ من السلام على ليلى قبل الرحيل، فقد صبرت النفس عن لقائها ثلاثة أيام، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه المذكرات، وهي حادثة ضجّت لها أرجاء العراق؛ ولكن لا موجب لتدوينها، لأني أحب أن تموت وهي في المهد، فقد تطويني طيّاً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعني، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال[٧].

وأشهد أني كنت أملك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان. وتفصيل ذلك أني رجل محزون، محزون، محزون، محزون، ولو شئت لكرّرتها ألف مرة ولكنّي من أقدر الناس على الفرار من أحزاني.

ولعلّي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول:

جنت عليّ الليالي غير ظالمة

إني لأهل لما ألقاه من زمني

فما رأيت من الأخطار عادية

إلا بنيت على أجوازها سكني

ولا لمحت من الآمال بارقة

إلا تقحمت ما تجتاز من قنن

أحلت دنياي معنى لا قرار له

في ذمّة المجد ما شردت من وسن

ولكن أحزاني تحقد على تجلّدي أبشع الحقد فتجمع جيوشها وتهجم عليّ من حين إلى حين، وقد إنتصرت في هذا اليوم مع الأسف الموجع، فلم أجد مفرّاً من السلام على ليلى، علّها تجفّف دموعي وتبرّد أحزاني.

إليك يا ليلى المرجع، وإليك يا ليلى المآب.

* * *

دخلت على ليلى في العصرية لأقضي في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار البصرة، فماذا رأيت؟ ماذا رأيت من ليلى ربّة العطف والحنان؟

تلقّتني غاضبة بعينين تقذفان بالجمر المتوقّد وتحت قدميها ظمياء.

ـ من أتى بك إلى هذه الدار؟

ـ من أتى بي إلى هذه الدار؟ هذه دار ليلاي!

ـ ليلاك؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمح في أن أكون ليلاه؟

ـ سيدتي، ماذا حدث؟ خبّريني فقد طار صوابي.

ـ وهل تجهل ما حدث؟ إسأل قلبك إن كان لمثلك قلب!

ـ إن قلبي يشهد بأنني وفيّ أمين.

ـ وفي مثل ما صنعت تكون الأمانة، ويكون الوفاء!!

ـ سيدتي، ماذا حدث أخبريني فقد طار صوابي.

ـ هل تنكر ما شاع عنك؟

ـ وما الذي شاع عني؟

ـ يقول أهل بغداد أنك كنت مثال السخف في سهرات المؤتمر الطبي، ويقولون أنك لم تترك سيدة إلا قبّلت يديها، وربما أوغلت في السخف فقبّلت جبينها وخدّيها.

ـ كذبوا، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة.

ـ ما هذا التظرّف السخيف؟

ـ ليلى، إسمعي، أنت حمقاء.

ـ أنت وحدك الأحمق.

ـ أنا وحدي الأحمق؟ صدقت يا ليلى، فلو كنت أعقل لرأيت لنفسي ألف مذهب في الحياة غير مداواة الملاح!

ـ قلت لك أني أبغض هذا التظرّف السخيف.

ـ وهو كذلك، تركت التظرّف السخيف، تركت التظرّف السخيف، ولكن إسمعي يا ليلى، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة، وستبكين أيامي.

ـ أبكي أيامك؟ وهل كانت لك معي أيام يطول عليها البكاء؟

ـ ليلى، إسمعي وإعقلي، أنا لا أنكر ما وقع مني في سهرات المؤتمر الطبي، ولكني رجل حزين يداوي جراح قلبه بالعبث والمجون.

ـ أعرف أنك حزين، لأني أعرف المرأة التي كوت قلبك.

ـ ما كوى قلبي أحد، وإنما همومي هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء.

ـ أنت وحدك الأحمق.

ـ شيء غريب! أهذا أدب النساء في بغداد؟

ـ هذا هو أدب النساء في بغداد، وستعرف عواقبه بعد حين.

ـ ليلى، يظهر أنك امرأة كسائر النساء.

ـ النساء أشرف من الرجال.

ـ المرأة أجمل من الرجل، ولكن الرجل أشرف من المرأة، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة، ولو كنت في مكاني يا لئيمة...

ـ انت وحدك اللئيم.

ـ من أين تعلّمت هذه الألفاظ الغلاظ؟

ـ تعلّمتها منك!

ـ هل يسرّك أن نفترق؟

ـ في أمان الله!

* * *

خرجت من غرفة ليلى والدمع في عيني، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التي أنست وحشتي في بغداد. نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التي عرفت بها كيف إستطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين. هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التي جعلت قلمي أطوع قلم، وجعلت بياني أعظم بيان. هذه آخر مرة أشرب فيها صبابة الكأس، وألقي سيفي وأطوي لوائي، إلى آخر الحياة، إن كان لمثلي بعد ليلى حياة.

وفي تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكي لبكائي، أنا العاشق المسكين الذي لم يحفظ له جميل. وقد سقطت على السلّم مرتين، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة في الحجرة التي تقارب الباب إلى أن تجف دموعي وترجع قواي.

وما كدت أجلس حتى أدركتني ظمياء وهي تقول في تلهّف:

ـ عيوني! دكتور زكي، عيوني، تعال، تعال..

ومدّت يدها لترجعني إلى ليلى، فدفعتها بعنف، وخرجت.

* * *

وفي أثناء الطريق عاد صوابي، وقد عجبت من أن يعود بهذه السرعة، ولكن قلب المحب له أحوال... وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء، فإن من هوى المرأة أن تجحد الجميل. تذكّرت أن المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء، وهي تجد لذة في الجمود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل.

وتذكّرت أخطائي في معاملة النساء، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية، لأنني عشت دهري مدللاً بين الملاح، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود، فقد أضاع عليّ فرصة سأندبها ما حييت: أضاع عليّ المرأة الجميلة التي إتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية، المرأة التي قسّم الله جسمها أجمل تقسيم، وصاغها على أفضل نظام؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة: أيش سويت لي؟ أيش صنعت لي؟ وكنت يومئذ جاهلاً. وأي جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل؟ وقد حملني هذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف... ثم تطلّع إليها القلب بعد ذلك، ولكنّي واحرّ قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط.

وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف؛ ولكني لا أزال أسأل: كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدّد أمامي على السرير في غير ريبة؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض عليّ محاسن جسمها في غير سوء؟ أحب أن أعرف ما إختلف وما إئتلف من سرائر النساء، فمتى أعرف؟ أخشى أن يكون مصيري مصير الفرّاء الذي مات وفي نفسه شيء من حتّى! والعشّاق كالنحويين يموتون وفي أنفسهم أشياء. وحالي أغرب الأحوال، لأني نحويّ وعاشق.

وتذكّرت أن ليلى كانت قد رقّت ولطفت في الأيام الأخيرة، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون. وتذكّرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت أتلقاها من عيني ليلى في كل لقاء، وتذكّرت أنها عراقية، وأهل العراق كأهل بدر تُغفر لهم جميع الذنوب.

أرجع إلى ليلى؟ أرجع؟ لا. لن أرجع. ولكن ليلى مريضة، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين. أعود إلى ليلى أعود. أعود إلى ليلى. أعود.

أعود إلى المرأة التي ملأت رأسي بالنور، وغمرت قلبي بالحنان. أعود إلى المرأة التي قالت أنها تشتهي أن تموت ورأسها إلى صدري. المرأة التي أعزّتني أكرم اعتزاز، ورعتني أشرف رعاية.

أعود إلى ليلى، أعود إلى ليلاي. وفي أي قلب غير قلبي تحيا معاني الوفاء؟ سيموت الرفق يوم تموت ليلى، وسيموت الشعر يوم أموت. أعود إلى ليلى، أعود. ولكن ليلى أهانتني وجرحتني.

لا بأس، فليس يعيب الرجل أن تهينه الملاح، وأي هوان أقبح مما استبحت لنفسي في حي الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لي بتقبيل نعليها.

وكانت قبلة شهية جداً. أعود إلى ليلى، أعود. أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهي في صوان خاص، وقد وُشّيت بالذهب وأسدلت عليها ستائر الحرير الشفاف، ثم أرى ما تصنع ليلى، فعهدي بها تنظر إلى الصوان الذي يضمّ مؤلفاتي وتقول: هذا زكي مبارك العالم وهو رجل محترم، ثم تشير إليّ وتقول: وهذا زكي مبارك العاشق وهو رجل سخيف!

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها

إذا وليت حكماً عليّ تجور

وما هي إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت المسكينة في حالة تثير الدمع في أقسى الجفون.

ونظرت إلى ظمياء في حنان وهي تقول: لقد صحّ أملي فيك فقد أكّدت لليلى أنك سترجع وما كانت تصدق أنك سترجع.

وتسكت ليلى فلا تتكلم، كأنها تقاسي نوبة إغماء ثم تفتح عينيها بتكلّف وتقول:

ـ أنتم يا رجال ليس لكم أمان!

وأكاد أصعق، لأني سمعت هذه العبارة مليون مرة، ولعلّها أول جملة سمعها أدم من حواء.

ـ ليلى!

ـ مولاي؟

ـ مولاك؟ وكنت من لحظات ترفضين أن تكوني ليلاي؟

ـ إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل، وقد صدق خصومك في لبنان حين سمّوك «قيس المريض في العراق».

ـ سنفترق في حزيران.

ـ ومن يضمن أن تحفظ العهد إلى حزيران؟

ـ تأدّبي يا ليلى، فستبكين أيامي بالدمع.

ـ تأدّب أنت، فستبكي أيامي بالدم.

ـ الرجل أوفى من المرأة.

ـ لم يخلق الله أغدر من الرجل.

ـ المرأة سخيفة.

ـ الرجل أسخف.

وعند هذا الحدّ تدخّلت ظمياء وهي تقول: أتريدون أن تمثّلوا الرواية من جديد؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث، أسكتي يا ليلى، أسكت يا زكي.

وقد عجبت من أن تكون لظمياء هذه السيطرة، وأن ترفع الكلفة في مخاطبتي مع أني أستاذ عظيم. فقلت: وما شأنك أنت يا بنت؟

فأجابت: إحفظ أدبك، فأنا حارسة هذا البيت، وأنا ستّ الكل.

ـ ستّ الكل؟

ـ نعم، ستّ الكل! ألا تفهم؟

ثم رفعت يدها ولطمتني لطمة غارت منها ليلى، فنظرت إليها بغضب وقالت: الغزل ممنوع في هذا البيت!

وكانت ظمياء كالعصفورة التي يزعجها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب، فتدخّلت لإنصافها وقلت: ما هذا غزلاً، إن هذا إلا تأديب.

ـ ولن أسمح ليدٍ أن تؤدّبك غير يدي.

ـ شرع الله ولا شرعك يا ليلى.

فلطمتني الشقية لطمة أحرّ وأعنف. ولم أفكّر في الدفاع عن نفسي، وإنما أخذ قلبي يسأل: أيّ الكفّين أندى وأرق؟ كفّ ليلى أم كفّ ظمياء؟

ان عيني تعوّدت كحل هند

جمعت كفّها مع الرفق لينا

ومن الواضح أن هذا الإعتداء كان إيذاناً بإنتهاء الخصام. وفي لحظة واحدة تحوّلت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والإنشراح.

* * *

ـ ليلاي!

ـ مولاي!

ـ أنا أحبك!

ـ وأنا أبغضك!

ـ سمعت أنك بصرية.

ـ أبي بصري أما أمي فموصلية.

ـ وأنا أستأذنك لزيارة البصرة.

ـ لا تفعل.

ـ ولماذا؟

ـ البصرة لا تُزار في هذه الأيام، وإنما تزار في الموسم.

ـ أي موسم؟

ـ موسم التمر، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح، موسم العيون والقلوب، موسم الصيد يا جهول.

ـ جهول؟ وأنا أستاذ عظيم؟

ـ الأساتذة أجهل الناس، لأنهم يكتفون بما في الكتب من وصف الأشياء، ويجهلون حقائق الأشياء.

ـ ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء.

ـ وإذن فلن تصلح للأستاذية.

ـ وكيف؟

ـ ألا تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج؟ الأستاذ الحقّ في بلاد الشرق هو الرجل الذي يحفظ.

ـ ولا يعقل؟

ـ ليس من الضروري أن يعقل، لأنه لا يشترط في الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون. الأستاذ الحقّ يا غافل هو الرجل الذي يضيّع نصف الوقت أو كل الوقت في التبرّم بالمجتمع، ويقول في كل حين:

هذا الزمان الذي كنا نحاذره

في قول كعب وفي قول ابن مسعود

إن دام هذا ولم يحدث له غير

لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

ـ يهمّني أن أعرف شيئاً في هذا الموضوع يا ليلى، فأنا طبيب أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير إحتراف التدريس.

ـ زين، زين، وأنا أعلمك، ولكن إدفع الثمن.

ـ وما هو الثمن؟

ـ قبِّل يدي.

ـ أقبّل يديك ورجليك يا ليلى.

ـ إسمع يا زكي.

ـ أنا الدكتور زكي.

ـ لن تكون دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل.

ـ وهو كذلك، هاتي ما عندك يا داهية!

ـ إسمع أيها الطفل الكبير! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهّان، والكهّان كانوا قوماً منافقين، وإليهم كان الأمر في التعليم والتثقيف، وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين. ومن واجبي أن أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق، فهم يتطرّفون ليُقال أنهم متمدّنون. والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء. فإحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فإني أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين.

ـ سيدتي! إن مصر تحضّرت وهي تقود الشرق.

ـ لن أصدق أن مصر تحضّرت إلا يوم يُقام المرقص في ميدان الأزهر كما يُقام المرقص في ميدان السوربون.

ـ أنت سخيفة يا ليلى!

ـ وأنت أسخف!

ـ أنت لئيمة.

ـ أنا أعرف ما تريد، أعرف أنك تريد أن أعرك أذنك، ولكني لن أفعل.

ـ ولماذا يا شقية؟

ـ لأنك جهول.

ـ أنا عالم علاّمة.

ـ لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب في الجرائد والمجلات.

ـ إذن ماذا أصنع؟

ـ أكتم غرامك ونافق، كما يصنع فلان الذي يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف.

ـ ولكن إذا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف.

ـ غلبتني أيها المؤمن، فإن الذي يصلح ما بينه وبين الله لا يضرّه أن يفسد ما بينه وبين الناس.

ـ وآية ذلك يا مولاتي أن تلاميذي لم يفسد رأيهم فيّ أبداً، فما إشتغلت بالتدريس في معهد إلا شهدت أحجاره بأني أصدق من عرف من المدرسين.

ـ أنت اذن موفق.

ـ تحبينني يا ليلى؟

ـ أنا أبغضك!

ـ ولكن أنا أحبك!

ـ أمامك دجلة، فإكرع منها كيف شئت!

ـ أستأذنك في السفر إلى البصرة.

ـ في رعاية الله وأمان الهوى.

ـ ألا تغارين من سفري إلى البصرة؟

ـ أنا لا أغار عليك!

ـ أنت إذن لا تحبينني!

ـ ما أنكر أني أحبك بعض الحب، ولكن لا موجب للغيرة، فقد ضمنت أن تكون لي طول عمرك. ولقد قيّدت قلبك بقيود من حديد. أما سمعت ما قال أحد فضلاء المحاضرين بمحطة الإذاعة الفلسطينية؟

ـ وماذا قال؟

ـ قال أنك تحبني، وأنني وهبتك الخلود، وما يقال في فلسطين تسجّله السماء.

ـ وأقول في البصرة أني أحب ليلى؟

ـ قل في البصرة أنك تعبد ليلى ليكرّموك.

ـ وأنت تحبينني؟

ـ أنا أبغضك.

إلى البصرة، إلى البصرة! إلى وطن ليلى التي تبغضني أمتطي قطار المساء، وأنا على موعد مع صاحبة العينين. فما الذي سيحدث في القطار وفي البصرة؟ أمري إلى الله وإلى الحب!

خرجت من منزل ليلى نشوان، نشوان إلى حدّ الجنون. والمرء في العراق لا يكون إلا في حالَين إثنين: حال تحدّثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الفرح، وحال تحدّثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الغيظ. فالمرء في العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء.

وكذلك حال ليلاي، فهي قد ترقّ وتلطف فأدخل دارها بعْيْد الغروب ولا أخرج إلا قبيل الشروق، وقد تقسو وتعنف فتطردني من دارها بلا ترفّق ولا إشفاق.

خرجت من منزل ليلى نشوان، فقد رضيت عنها ورضيَت عني، ولكن الحادث الأخير ترك في القلب عقابيل، فأخذت أحترس، وهل يتّفق الحب والإحتراس؟

نعم يتّفق الحب والإحتراس، ولكن يضيع النعيم. فالمحبّ المحترس يثق بنفسه، ولكنه لا يثق بمن يحب... وليلى بدأت تعدّ ذنوبي، ولكن من أي تاريخ؟ منذ اليوم الذي إطمأنت فيه إلى عودة العافية!

فمن أنا في دنياي! من أنا في دنياي؟ لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبي، ولكن هكذا كنت في حياتي، فما أذكر أبداً أني عانيت الظلم إلا على أيدي ناس أحببتهم وإستقتلت في الدفاع عنهم. كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال. كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد إنتهاب ما يحمل من ثمرات. كنت وكنت، فما أشقاني وما أعظم بلائي! كذلك دار رأسي وأنا ماضٍ إلى قطار البصرة. وما أدري كيف صاغ الله عقلي على هذه الصورة، فعقلي لا يغفو أبدا، وهو دائب على الدرس والتحليل، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورني من المعضلات الفلسفية أهتدي إلى حلّه في أحلامي، والمسيو ماسينيون يذكر ذلك، فقد كانت لي معه مواقف يوم كنت تلميذه في باريس.

أمسيت أحقد على ليلى! ولكن لا بأس! فقد وثقت بي، وإطمأنت إليّ، فأخذت تصادق من أصادق، وتعادي من أعادي، وليس ذلك بالقليل، فما الذي يمنع من أن أحتمل ما يثور في صدرها أحياناً من براكين؟

أليست عراقية؟ بلى، هي عراقية. وأنا رأيت الأعاجيب في العراق. منذ ليال أويت إلى فراشي في منتصف الليل والسماء صاحية، ثم إنتبهت على الروع والفزع، فقد كان المنزل ترجّ سقوفه وحيطانه بعنف، فأوقدت المصباح وأنا خائف أترقب، ثم عرفت بعد التأمّل أن الصحو أعقبه غيم ومطر وصواعق. ولما خرجت في الصباح رأيت الشمس أست ما جرح الليل، وكأن لم يكن شيء! (ذلك هو العراق). وكذلك تكون ليلاي في العراق. فما الذي يمنع من الصبر على دلالها وأذاها شهراً أو شهرين حتى تملّ هي من النضال؟ النضال؟

إن بعض المرضى يريحهم أن يثوروا على الأطباء. ومن واجب الطبيب أن يرحّب بمثل هذه الثورة، لأنها بشير العافية. وستذكر ليلى أني كنت من الصابرين، وأني منحتها عطف الحبيب ورفق الطبيب! ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل في سبيلي غاليات المدامع، إن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء. (لن أنساك يا ليلى فقد عاديت فيك وعوديت).

وأحمل في ليلى لقوم ضغينة
وتحمل في ليلى عليّ الضغائن
ولكن هل تفهمين أو تعقلين؟
أما والله لو تجدين وجدي
جمحت إليّ خالعة العذار

كانت هذه الخواطر السود تنتاش قلبي وأنا في طريقي إلى المحطة، ثم تفجّر الحنان في قلبي على غير إنتظار، فقد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب: «ليه تلاوعيني، وأنت نور عيني»

وهي من تغاريد أم كلثوم، وكأني أسمعها أول مرة، فرجعت على نفسي باللوم وقلت: كذلك يكون العتاب! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول: «ليه تلاوعيني، وأنت نور عيني». ولكني تذكّرت أن الوقت لا يتسع للقيام بواجبين في وقت واحد: عتاب ليلى وملاقاة صاحبة العينين التي أرجو أن أدفع بوجهها المشرق وحشة الطريق وظلام الليل. ودار ذهني يحاور ويجادل: كيف تشرك بليلى هذا الإشراك؟

ـ أنا أشرك بليلى؟ معاذ الحب!

والحق أني أشرك بهوى ليلى، ولكن هذا الشرك هو طريقي إلى التوحيد. أنا أحب جميع الملاح لأهيئ قلبي لحب ليلى. أحب من أجلها كل ما في الوجود، وأصفح من أجلها عن جميع الذنوب.

وصاحبة العينين ستسألني عن ليلى؛ والسؤال عن ليلى من ذلك اللسان الألثغ الملجلج هو في ذاته زلفى إلى ليلى. وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه، والضلال في هوى العيون قد ينسيني كروبي؛ وليلى يسرّها أن أعيش أطيب العيش، وهي تعرف أني لا أحيا بغير الحب والنسيم، شفاها الله وشفاني.

طوّفت بجميع أرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين، وما رأيت صاحبة العينين. فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين، وما رأيت صاحبة العينين. ورأى ناظر المحطة حيرتي فقال في تلطّف: ضاع منك شيء؟

فقلت: لا، ما ضاع مني شيء، وإنما أخاف وحشة الطريق وظلام الليل. فتعجّب الرجل من هذا الجواب المضحك وإنصرف. فهل رأى الناس حالاً مثل حالي؟ هل رأوا من قبلي رجلاً يرحّب بالشرك فيعزّ عليه الشرك؟ إن الحب يريد أن أذهب إلى البصرة وليس في قلبي غير ليلاي.

* * *

ـ دكتور، دكتور.

ـ نعم، نعم.

ـ أنظر، أنظر.

ففتحت عيني فإذا الشمس أشرقت وإذا سرب من الظباء الوحشية يجول في البيداء، وهي أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون. أتكون هذه الظباء الوحشية هي البشير بالإقتراب من الظباء الأنسية؟

هو ذلك، فلم يبق بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين.

* * *

الله أكبر ولله الحمد! هذه هي البصرة، هذه هي البصرة، وما تخونني عيناي.

هذا هو البلد الطيب، بلد المبرد، المبرد صاحب الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف.

وبفضل الكامل للمبرد وصلت إلى منصب الأستاذية في الأدب العربي؛ وبفضل الكامل للمبرد صحبت الشيخ سيد المرصفي سبع سنين، وبفضل الكامل للمبرد إستطاعت القاهرة أن تزاحم البصرة، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جلس على حصيره الممزّق رجل أعلم من المبرد، هو الشيخ سيد المرصفي أستاذي وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلي عبد الرزاق وأحمد حسن الزيات، وأول أستاذ تصدّر لتدريس الأدب بالأزهر في العصر الحديث! الله أكبر ولله الحمد! هذه هي البصرة ذات النخيل، هذه هي المدينة التي تجري من تحتها الأنهار، هذه شقيقة الفيوم، على أزهاره وأشواكه أزكى التحيات. هذه هي البصرة وما تخونني عيناي. فإذا قيل أن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثاني له في الوجود؛ وإذا قيل أن شواطئ الاسكندرية في الصيف لا ثاني لها في الوجود؛ وإذا قيل أن حيّ الشانزيليزيه في باريس لا ثاني له في الوجود؛ وإذا قيل أن السهل الذي تصادفه بعد الإنحدار من جبل لبنان منظر لا ثاني له في الوجود؛ وإذا قيل أن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وشارع فؤاد شيء يفوق الظنون؛ وإذا قيل أن الغبوق بمصر الجديدة والصبوح بالزمالك نعيم يذكر بنعيم الفراديس؛ وإذا قيل أن صبايا المنصورة لهنّ مذاق لا ثاني له في عالم الجمال؛ وإذا قيل أن مناظر الكروم في «بوردو» لا شبيه لها ولا مثيل؛ وإذا قيل أن بغي المصريين بعضهم على بعض معنى فريد في الوجود؛ وإذا قيل أن قبّة الجامعة المصرية أعظم قباب الشرق؛ وإذا قيل أن زكي مبارك أسعد من إستصبح بظلام الليل في بغداد؛ إذا قيل ذلك أو بعض ذلك فأعرف أن مدينة البصرة هي شيء فريد في دنيا الشرق، ودنيا الغرب. هي غريبة الغرائب، وأعجوبة الأعاجيب، هي فوق الأوهام والظنون، وإن جهلها فريق من أهل العراق.

ما هذه المدينة؟ ما هي؟ لقد استأنست كل الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل. لقد كبَّرت وهلَّلت حين رأيت وطن المبرد والجاحظ والحسن البصري وإخوان الصفاء.

لقد كبّرت وهلّلت حين عرفت أن للعروبة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية.

ثم غلبني الحزن حين تذكّرت أن مناظر شطّ العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية في الحظ: فعن شطّ العرب تغافل الشعراء، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء. فليس على شط العرب قصور، وليس على القناطر الخيرية قصور.

* * *

الله أكبر و الله الحمد! هذا طريق النخيل، وهو في بعض صوره أروع من غابة بولونيا، ولكن أين الظباء؟ وهؤلاء البصريون وفي عيونهم السحر الحرام أو الحلال، ولكن أين الشعراء؟

* * *

نحن في البصرة؛ أي والله، نحن في البصرة. وفي تلك المدينة تسأل سيدة نبيلة عن طبيب ليلى المريضة في العراق. وتطلب أن تراني وحدي، فأذهب اليها وحدي ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم النبيل.

ويدوم المجلس ساعات وساعات في جدل هو أنضر وأشرف ما عرفت العقول. وتجري على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيها روحها الشفاف فيبتسم زوجها وهو جذلان.

وفي غمرة تلك النشوة أنظر ساعتي فأرى الموعد إقترب للمحاضرة التي دعاني اليها سعادة الأستاذ عبد الرزاق إبراهيم مدير المعارف بالبصرة.

وتمدّ تلك السيدة يدها لتوديعي فأبكي لأني لا أضمن الرجوع إلى البصرة، أنا الطائر الغريب الذي لم ينعم في

البصرة بغير سواد العيون في غفوة الزمان، وهو لا يغفو في العمر كله غير دقائق.

بعد لحظات أكون في نادي البصرة فأرى الناس في إنتظاري بالمئات، إن لم أقل بالألوف. وهناك أرى فتاة جميلة هي بنت عمة ليلى، فتسرع إلى لقائي بعد إنتهاء المحاضرة وهي تقول: حافظ على شبابك يا دكتور، فإني أخشى أن يودي التأليف بشبابك فأتلطف وأقول: لا تخافي على شبابي يا بنيتي، فهو باق ما بقيت عيون الظباء. وتشجع الفتاة فتقول: أخشى أن يقتلك التأليف! فأتشجع وأقول: لا تخافي علي يا بنيتي فأنا لا أخاف الموت، وإنما يخافني الموت. ويروعها ذلك فتقول: وكيف؟ فأجيب: لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده في الجرائد والمجلات!

* * *

أفي الحق أنني زرت البصرة ورأيت شط العرب، ونعمت بكرم السيد تحسين علي، ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخي، وأدب السيد عبد الرزاق إبراهيم، ورأيت بنت عمة ليلى، وشربت الشاي في منزل السيدة التي تغار من ليلى؟ لا تصدق ذلك يا قارئ هذه المذكرات، فتلك أحلام رأيتها في نومي ولن تعود.

إن سمعت أيها القارئ أن جرائد البصرة إعتركت في سبيلي أسابيع وأسابيع فلا تصدّق.

إن سمعت أيها القارئ أنني كحلت عينيّ بتراب البصرة فلا تصدّق.

إن سمعت أيها القارئ أنني عرفت السيد تحسين علي فلا تصدّق.

إن سمعت أنني زرت قريبات ليلى في البصرة فلا تصدّق.

إن سمعت أنني ألقيت في البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدّق.

إن سمعت أنني عانقت عشرين نخلة في البصرة فلا تصدّق.

إن سمعت أن أنهار البصرة داعبتني بالمدّ والجزر فلا تصدّق.

إن سمعت بأن أسماك شط العرب قبلت يدي وخدّي فلا تصدّق.

إن سمعت بأني لم أنفق درهماً واحداً في البصرة فلا تصدّق.

إن سمعت أن البصرة هدتني بعد ضلال فلا تصدّق.

إن سمعت أنني ودّعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدّق.

١٦

- كان فضيلة الشيخ دعّاس العيسوي والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك، أعني بولاق.
- ما هذا الخلط يا ظمياء؟
- كنا نفهم أنه يقيم بالزمالك، ثم عرفنا أنه يقيم في بولاق، وقد فهمنا أن سكان بولاق يحبون أن يسمّوا محلّتهم زمالك.
- شيء غريب!
- وما وجه الغرابة في ذلك؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك.
- ولكن بولاق في الضفة الشرقية، والزمالك في الضفة الغربية، فبولاق شرق، والزمالك غرب، والشرق والغرب لا يلتقيان.
- إيش لون؟
- هذه معانٍ لا يفهمها غير الفلاسفة يا ظمياء.
- وكنت أذهب في صحبة ليلى إلى منزل الشيخ دعّاس العيسوي، وكان شيخاً يقارب الستين، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب في مغازلة النساء. كان يصوّب بصره إلى ليلى ويقول: «يا بنت يا كهرباء» وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف. ولعلها كانت تود لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب، وكانت السيدة نجلاء...
- هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء؟
- أعرف كل شيء: كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعّاس وهو يصطاف في لبنان قبل الحرب بأعوام طوال فتزوّجها ونسي من أجلها زوجته وأبناءه في (أشمون).
- وهي أم عبد الحسيب؟
- بالتأكيد، وعنها ورث خضرة العينين.
- فهمت. هاتي بقية الحديث.
- وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعّاس وإبنه عبد الحسيب، ثم إستأنست بعد حين، فقد إطمأنت إلى شرف القلوب في ذلك البيت. وكان فضيلة الشيخ دعّاس يتناول على المائدة دواء كميت اللون يصلح الأمعاء. وكان هذا الدواء يحفظ في صوان خاص ويقدّم إليه في الغداء والعشاء. وفي ظهر طرق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلوني فأسرعت ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء. ودخل الشيخ الزنكلوني فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يبخل عليه الشيخ دعّاس بقطرة من الدواء الذي يصلح الأمعاء.
- عمن تلقيت دروس اللؤم يا ظمياء؟
- تلقّيتها عن طبيب مصري يقيم في بغداد.
- وأين عيادة هذا الطبيب؟
- هو طبيب بلا عيادة، على وزن وزير بلا وزارة.
- فهمت. ويسرّني أن يكون تلاميذي جميعاً أذكياء. وماذا صنع الشيخ الزنكلوني حين رأى ليلى؟
- قبّل جبينها وقال: أنت درّية؟ فلما عرف أنها فتاة من العراق قبّل جبينها مرة ثانية وقال: أنا أحب العراق، ونسائم العراق، وجميع ما برد من وطن أبي حنيفة النعمان. إسمعي يا بنيتي، أنا من الشافعية، ولكني أستظرف الحنفية.

وهنا تدخّل الشيخ دعّاس فقال: ولكن أبو حنيفة كان يبيح النبيذ. فثار الشيخ الزنكلوني وقال: هذه دسيسة مذهبية، فما أباح أبو حنيفة النبيذ، وانما أباح العرقسوس.

وتشجّعت ليلى فقالت: رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء.

وكانت أول مرّة فهم فيها الشيخ دعّاس أن ليلى لم تكن من الغافلات! ثم دعانا الشيخ الزنكلوني لزيارة منزله في حارة أم الغلام.

- وزارته ليلى هناك؟
- وعدت ثم أخلفت، فقد رابها تظرّف المشايخ.
- ضيّعتم فرصة ثمينة يا ظمياء. فما الشيخ الزنكلوني متظرّفاً، وإنما هو ظريف.
- سنزوره حين نرجع إلى مصر، يا مولاي.
- ومتى ترجعون إلى مصر، يا ظمياء؟
- حين تسمن الأسماك.
- ومتى تسمن الأسماك؟
- حين ينضج التوت.
- ومتى ينضج التوت؟
- حين تعقل ليلى وترجع إلى التلطّف مع طبيبها النبيل.

إذن لن ينضج التوت ولن تسمن الأسماك.

- صبراً يا دكتور، فإن الله مع الصابرين.
- سأصبر يا طفلتي الغالية... ولكن كيف كانت ليلى مع عبد الحسيب؟
- كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك، فتتجاهل ما تملي عليه الصبابة من نظرات وأحاديث. والمحبّون يتغطرسون لأنهم أذلاء، ولو كانوا على شيء من العزّة لإحتقروا الكبرياء. وهذا هو السبب في أن الأحباب يحرم بعضهم عطف بعض. فالحبيب يريد أن يذلّ له المحب، والمحب يريد أن يذلّ له الحبيب؛ وفي ظلمات هذا العناد السخيف تنفصم الأواصر والصلات. وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلى كل سبيل، كان يحتال ليظفر منها بإبتسامة، فكان يغرب في سرد أخبار الشيخ كراوية.
- ومن الشيخ كراوية يا ظمياء؟
- أستاذ كان يدرّس اللغة العربية بمدرسة المساعي المشكورة بالزقازيق.
- أنت جاهلة يا ظمياء، فمدرسة المساعي المشكورة في شبين الكوم لا في الزقازيق.
- أؤكد لك أنها في الزقازيق، ولك أن تسأل ليلى فعندها الخبر اليقين.
- إذا أخذت العلم عن ليلى فعلى العلم العفاء!
- وكان عبد الحسيب يقف فيقلّد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير:

أن العيون التي في طرفها حور\
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا\
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به\
وهن أضعف خلق الله إنسانا

وكان يصوّب بصره إلى ليلى حين يصل إلى عبارة «وهن أضعف خلق الله إنسانا»، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ في التغطرس والإزدهاء.

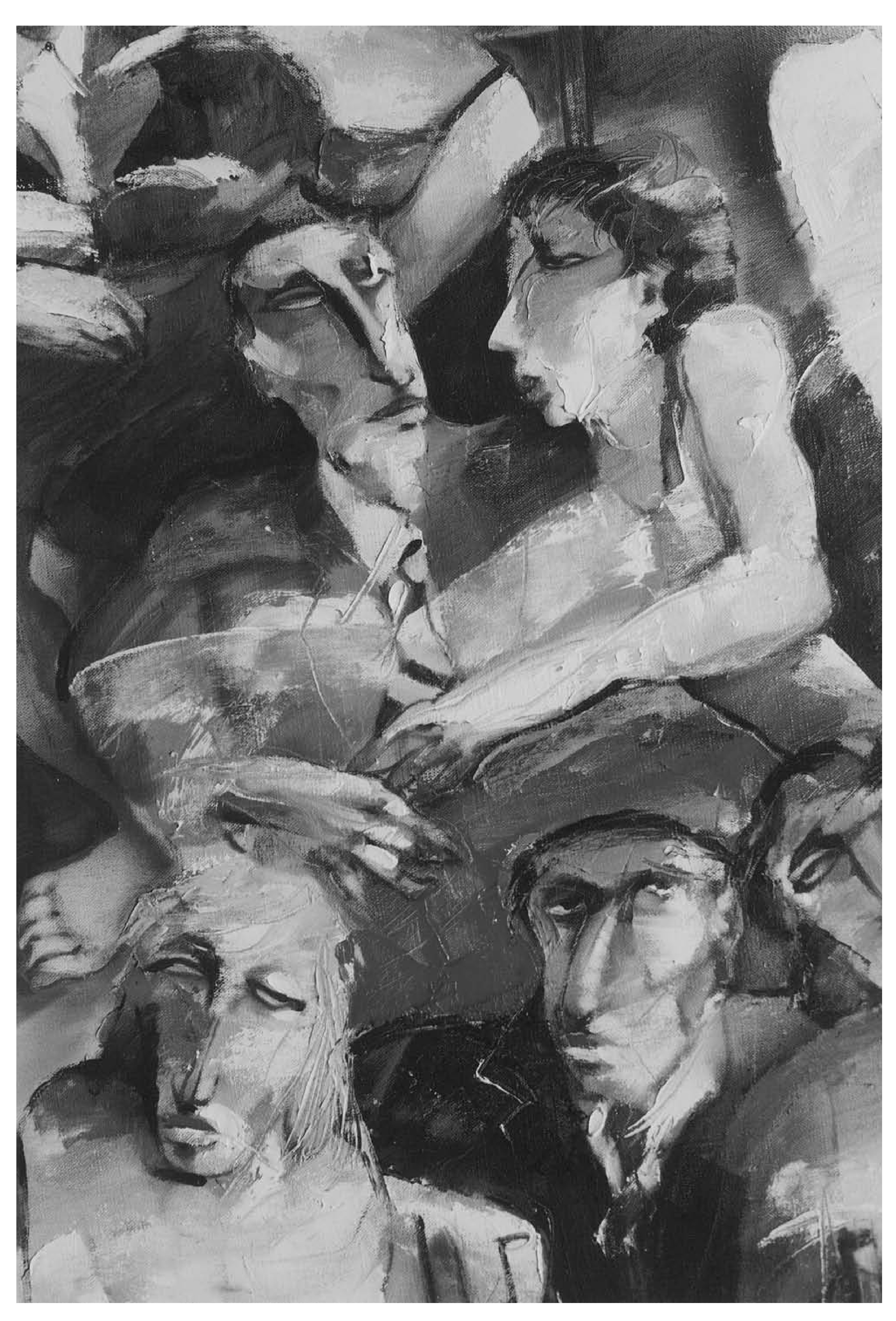
وفي إحدى العصريات دخل عبد الحسيب غضبان فإنزعج الشيخ دعّاس وإنزعجت السيدة نجلاء، فنظرت إلى وجه ليلى فرأيته يشبه دجلة في أيام نيسان.

- إيش لون؟
- وأنت يا مصري تقول «إيش لون؟»
- إيش لون؟ إيش لون؟
- دجلة في نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تلطم وجه بغداد.
- وكانت ليلى تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب؟
- كانت تهمّ بإفتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهي في دنياه.

ـ كانت تحبه؟
ـ وأي حب؟ وهل في الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق؟
ـ وما هي أسباب ذلك الغضب الذي سيطر على عبد الحسيب؟
ـ قال أنه تلقّى محاضرة في مدرسة البوليس ألقاها الصاغ علي حلمي عن «القوة المعنوية» فثار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلّح بالقوة المعنوية، وجلس على المائدة وهو في غاية من العقل، فلا نوادر ولا فكاهات، ولا الشيخ كراوية ولا عبدالله شعيب. فعرفت ليلى أن الشاب إبتدأ يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق. آه، ثم آه!
ـ لا تتأوّهي يا ظمياء فقد مزّقت قلبي.
ـ تحبّني يا مولاي؟
ـ إستحي يا ظمياء فأنت في حضرة طبيب.
ـ وبعد ليال دعتنا السيدة نجلاء لسماع المغني عبد اللطيف البنا في ملاهي المعرض فسمعناه يقول: «سلامة القلب من حبك يا قاسي».
فتحدّرت مدامع ليلى وأصابها إغماء. وكانت ليلة قضيناها في كروب وأشجان. وفي الليلة التالية صمّمت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهي المعرض، فسمعنا أم كلثوم تغني:
ياللي شغلت البال
يا ليت أكون على بالك
الوجد له أحوال
يا ليتني أعرف حالك
فأخذت ليلى تبكي بكاء لا تجود بمثله عيون الأطفال، فخشيت أن نفتضح وأخذتها في سيارة إلى المنزل الذي كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل، وإنحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع.
ـ ثم ماذا؟
ـ ثم تفضّل الشيخ دعّاس والسيدة نجلاء والآنسة درّية بالسؤال عنّا فتشجّعت ليلى وسألت عن عبد الحسيب، فإبتسم الشيخ دعّاس وقال: تحبّينه يا ليلى؟ فقالت: ما أحبه، وإنما أشتهي أن يحدّثني مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها محابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعي المشكورة الثانوية.
وقهقه الشيخ دعّاس وهو يقول: وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط أصبحوا يرحّبون بوضع الزيت في محابرهم على أيدي التلامذة المسلمين؟
ولم تفهم ليلى ما يريد، فإستطرد الشيخ دعّاس قائلاً: نحن إئتلفنا على يد الشيخ الصالح سعد زغلول، وأنا وضعت قواعد الإئتلاف قبل سعد زغلول، فزوجتي نجلاء كانت مسيحية وأسلمت لتربط بين مصر ولبنان. فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب؟
فإستأنست ليلى وقالت: هل قرأت يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبي ربيعة؟ فقال: ما قرأتها، لأن أخبار عمر بن أبي ربيعة لا تدرّس في الأزهر الشريف. فقالت ليلى: كان إبن أبي ربيعة يستهوي جميع النساء اللائي يشهدن موسم الحج، إلى أن فتنته إمرأة عراقية، فراودها عن نفسها فإستعصمت، فخطبها لنفسه فأبت وقالت: تعال إلى العراق وأخطبني من أهلي. وكان إبن أبي ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق، وحرمه المجون من التشرّف بمصاهرة أهل العراق. فإن كان عبد الحسيب صادقاً في حبّي فليمض إلى العراق وليخطبني من أهلي هناك.
وعرف الشيخ دعّاس أن هزل الحب جدّ، فإنصرف وهو مكروب!
ـ ثم ماذا يا ظمياء؟
ـ ثم إنتظرنا أسابيع فلم يسأل عنّا الشيخ دعّاس ولا إبنه عبد الحسيب فرجعنا إلى العراق ونحن نبكي سلامة الأخلاق في بلاد الفراعين.
ـ شيء مزعج، شيء مزعج!
ـ لا تحزن يا مولاي ولا تبتئس، فقد وقعت أعاجيب.
ـ أفصحي يا ظمياء.
ـ في اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٦ طرق الباب زائر غريب، فنظرنا فإذا هو الضابط عبد الحسيب بعينيه الخضراوين وقوامه الرشيق، وهجمت ليلى عليه فقبّلت جبينه وخدّيه بلا تهيّب ولا إستحياء، ودعوناه للنزول في ضيافتنا فرفض، وقال إنه جاء لخطبة ليلى، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس، وإنه مرشّح لرياسة نقطة النعناعية، فنظرت ليلى إليه بعيني اللبؤة العادية وقالت: لن أقبل يدك أو أختبر أخلاقك!
ـ ثم ماذا؟
ـ إستيأس الشاب المسكين وقال: وبأي صورة أعيش في بغداد؟ فقالت ليلى: ذلك الي.
ـ ثم تحمّلت ليلى بأهلها ومعارفها إلى نوري باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القائد العام، وكان برتبة زعيم، فألحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراقي بحجّة التقريب بين مصر والعراق.
ـ شيء جميل!
ـ إنتظر يا دكتور، فقد أفسدت ليلى كل شيء.
ـ وماذا صنعت الحمقاء؟
ـ بثّت من حوله العيون لترى كيف يفكّر وكيف يصنع، فصحّ عندها أنه كافر بالحب وبالعروبة فأصلته نار الصدود.
ـ ثم ماذا يا ظمياء؟
ـ ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نوري باشا السعيد.
ـ ثم ماذا، يا ظمياء؟
ـ ثم خلت حياة ليلى من حبيبها الغالي فلم تعد تعرف طعم الحياة وحالفها الضنى والنحول.
ـ ثم ماذا، يا ظمياء؟
ـ ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الغالية فلاذ بأمه الرءوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه، فكان من رأيه أن ينتقم من ليلى بطريقة دولية تضج لها المشارق والمغارب، وصحّ عنده أن تغني السيدة نادرة هذا البيت:
يقولون ليلى في العراق مريضة
فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
ولم يقف عند هذا الحد بل أشار بوضع هذا الصوت في شريط «أنشودة الفؤاد».
ـ ثم ماذا، يا ظمياء؟
ـ ثم تنكّر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرة على ليلى فلم يعرض في بغداد غير مرات معدودات.
ـ ثم ماذا، يا ظمياء؟
ـ ثم لطف الله بليلى فجاء الدكتور زكي مبارك لمداواتها منتدباً من الحكومة المصرية، أيدها الله.
ـ وما الرأي يا ظمياء إذا عوفيت ليلى ومرض الطبيب؟
ـ الأمر يومئذ لله.

* * *

ليلى، ليلاي؛ أنت تعلمين أني تركت في سبيلك وطني وأهلي. أنت تعلمين أن صحتي إعتلّت وأنني أعيش على منقوع الفواكه منذ أسابيع وأسابيع. أنت تعلمين ما أنا صائر إليه إن دام هذا الصدود. أنت تعلمين أني ضحية الواجب والعقيدة والوجدان. فما هذا التجنّي يا ليلى وأنا ما خنت العروبة ولا كفرت بالحب؟
أحبك يا ليلى، أحبك، فإصنعي بقلبي ومصيري ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال أحبك يا ليلى في غضبك ورضاك. أحبك حباً ما سبقني إليه سابق ولن يلحقني فيه لاحق. أحبك يا ليلى وأحب من أجلك جميع ما في الوجود حتى قيظ بغداد. أحبك يا ليلى وأرى وجهك مسطور الملامح والتقاسيم في كل ما تقع عليه عيناي. أحبك وأحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة؛ وما أحب الحياة لنفسي يا ليلى فقد شبعت منها ورويت، وانما أحب الحياة ليبقى لك في الدنيا محب صادق يرى الضلال في هواك أشرف من الهدى، ويرى الظلام في هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح أحبك يا ليلى وأتمنّى أن لا تحبيني: فما يرضيني أن تعاني في الهوى بعض ما أعاني أنا أكره لك يا معبودتي أن تذوقي ملوحة الدمع، وأن تهيمي بعدّ نجوم الليل، وأن تقفي موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يبتسم الوجود.



ولكن ما السبب في هذه القطيعة الباغية، وما أذكر اني أسأت أو جنيت؟ أيكون السبب تلك الكلمة الفكاهية التي داعبت بها ليلى بعد رجوعي من البصرة؟

ربما كان ذلك، فالمزاح كان ولا يزال من أشنع البليات، وما إستطاع إنسان أن يجرح قلبي إلا عن طريق المزاح. والأحباب ينسون واجب الأدب فيتطاول بعضهم على بعض بإسم المزاح؛ وذنبي في هذه القضية غير مغفور، لأني إنقطعت لدراسة الفلسفة عدداً من السنين وكان الظن أن أفهم أن المزاح على لطفه لا يخلو من أشواك، وقلب ليلى رقيق تؤذيه خطرات النسيم، فكيف لا يؤذيه المزاح؟

لو رجعت إلى ليلى لأحسنت الإستغفار من ذنبي، ولكن متى أعود؟

لقد داعبتني ليلى ألف مرة فتقبّلت دعاباتها بأحسن القبول، وكنت لجهلي أتوهّم أن قلب ليلى سيرحّب لمثل ما رحّب به قلبي فكيف أخلفت ظنوني يا منية النفس ويا روح الفؤاد؟ ما هذا؟ أنا داعبت ليلى قبل ذلك فلم تغضب، فكيف تكون الدعابة الأخيرة بداية البؤس ونهاية النعيم؟ إن من واجبي نحو هواي أن أدرس هذه القضية حق الدرس.

وقد بدأت أفهم أن كلام الجرائد والمجلات أفسد ما بيني وبين ليلى كل الإفساد، فقد مضت الشهور الطوال والجرائد تهتف بإسمي في الصباح والمساء، وظنّ الأدباء العراقيون أن الفرصة سنحت لتصفية ما بيني وبينهم من حساب، وكنت أقرأ ما أقرأ وأنا أبتسم، كنت أقول: هذه يقظة أدبية وإجتماعية أردّ بها ديوني إلى العراق. كنت أقول: هذه أقلام صدئت وقد حان لها حين الصقال، فليكن أدبي هو ذلك الصقال.

كنت أقول وأقول، ولكن التفكير في جوهره غير سليم ما الذي كان يمنع من دفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات؟

ما الذي كان يمنع؟ كنت مشغولاً بواجبات ثقال تكاد تقصم ظهري ولكن هل تفهم ليلى أني مشغول وأن لي منهجاً يفرض أن لا أخرج من بغداد إلا وفي حقائبي خمسة مجلّدات؟

ينبغي أن أعترف بأن مركزي بين الأطباء لم يتزعزع بسبب الأدب وحده، وإن كانت حرفة الأدب قادرة على زعزعة العروش، وإنما وقعت النكبة وتقوّضت عيادتي بشارع المدابغ وعيادتي بشارع فؤاد لعدم إكتراثي بما يكتب في الجرائد، وعدم إهتمامي بما يقول الناس. وأصل البليّة أني كنت أحسن الظن بعقول بني آدم - وهذا أعظم خطأ إرتكبته في حياتي - فقد كنت أظن أن الناس يميّزون بين الحق والباطل فيما يقرأون؛ وكنت أتوهّم أن أكاذيب المفترين لا تضرّني، فكنت أقرأ ما يُكتب عني بلا إكتراث، وأقول: هذه مفتريات ليس لها أساس، وما قام على غير أساس فمصيره التهدّم والزوال.

وظلّ الحال على ذلك بضع سنين وأنا أصمّ أذنيّ عن الأقاويل والأراجيف إلى أن دخل عيادتي مساء يوم مريض له شأن في المجتمع، ويكفي أنه أستاذ في أحد المعاهد العالية، فلما فحصته وشخّصت له المرض إطمأن وإستراح، فدعوته لتناول فنجان قهوة بالمكتب فتفضّل بالقبول، وفي الناس من يتفضّلون بالقبول وأنت المتفضّل عليهم بالمعروف.

وفي أثناء الحديث فهمت أن زوجته عليلة وإنه كان يودّ أن أمضي لعيادتها لولا خوفه من كلام الناس، وبعد مراجعته فهمت أن مركزه العلمي لم يعصمه من تصديق كل ما يكتب في الجرائد وعرفت بعد فوات الوقت أن الإعتماد على عقول بني آدم ضرب من الخيال.

إن من الجريمة أن نسكت عمّا يُكتب عنا في أمّة لا تنقد ما تقرأ، ولا تمحص ما تسمع، ومن الجريمة أن نسعى إلى الشهرة، فإن الشهرة أصل كل بلاء، والرجل المشهور يصدّق الناس فيه كل بهتان، ولا سيّما في الأمم التي تضعف فيها الثقة بالأخلاق، ومصر التي نحبها راضين أو كارهين مبتلاة بهذه البلية، فأهلها لا يصدّقون أن العبقريين والنوابغ أصحاب أخلاق، وما أزعم أني نابغ أو عبقري حتى أصبح أهلاً لتلك الظنون، ولكني بالحق أو بالباطل صرت من أشهر الرجال، وللشهرة عقابيل.

شاع في بغداد أني ذاهب إلى الموصل لأستشفع بالحور العين من قريبات ليلى: فللشقية هناك بنات خالات، وسمع بذلك أخ صادق فقال: خير لك أن تسافر إلى النجف، فهو أقرب من الموصل؛ وملاح النجف أرقّ وأظرف، وهنّ يعطفن على بلواك، وهذا اليوم أصلح الأيام.

وسألت عن السبب، فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول في السابع عشر من ربيع الأول؛ وفي المولد النبوي تزدحم ساحات الحرم الحيدري بالعرائس فأختار من الشفيعات ما أشاء... وما هي إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ، الكرخ الذي كان فيه قمر إبن زريق، والذي سامرت في رحابه قمراً غادراً لا يحفظ العهد، وستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يراني، وهل كنت إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد؟ ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء؛ وفي الطريق مررت على الإسكندرية وكنت مررت عليها في طريقي إلى الحلة منذ أشهر، ورجّحت أنها البلدة التي يُنسب إليها أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان؛ ولكني في هذه المرّة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جعلها من الثغور الأموية، فاهتديت إلى أصلها بعض الإهتداء، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين[٨].

لم أقض في كربلاء غير لحظات، وهي مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحي، وفيها قُتل الحسين كما هو معروف، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكني شهدت قبّته العالية، وهي مكسوّة بالذهب الوهّاج، وفي كربلاء ضريح آخر للعباس أخي الحسين، وهذان الضريحان يفيضان النور على كربلاء، وقتل الحسين كان نعمة على هذه المدينة: فقد أصبحت بفضل مرقده من مواسم القلوب.

ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتني إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرّة، فتذكّرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع والشعوبية كانوا جماعة من الأدباء لا يعرفون العواقب، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات، وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب.

وأخذت تلك الصحراء تصنع بخيالي ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب. وبعد ساعة رأيت في الأفق ذهباً يتوهّج، فحدقّت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيته يزداد إشراقاً إلى إشراق، فصحّ عندي أنه ذهب القبّة العالية، قبّة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وعطّر مثواه.

ثم عبرت إلى النجف وادي السلام وهو مقابر طوال عراض عرفت ملايين الناس من سائر الأجناس. وأهل النجف يعتقدون أن من يُدفن في وادي السلام لا يسأل في البرزخ، وهو إعتقاد لطيف، فمن عزاء الإنسانية أن تعتقد أن لها معتصماً من الحساب ولو إلى حين.

وفي وادي السلام يقول الأستاذ علي الشرقي:

ثلاثون جيلا قد ثوت في قرارة
تزاحم في عرب وفرس وأكراد
ففي الخمسة الأشبار دكّت مدائن
وقد طويت في حفرة ألف بغداد
عبرت على الوادي وسفت عجاجة
فكم من بلاد في الغبار وكم ناد!
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربه
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام، أي الموت:

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمت، ثم أسلمت نفسي إليه، لعلمي بأني صائر لا محالة إلى السلام، أي إلى الموت!

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام في حي سيدنا الحسين بالقاهرة: رأيت الناس ينامون زرافات في حجرة واحدة، فأخذت أمتعتي وإنصرفت، وذهبت إلى فندق ثاني فرأيته أعجب من الأول، فمضيت إلى ثالث فرأيته أغرب من أخويه، وإنتهى بين المطاف إلى غرفة حقيرة في فندق حقير، هو أعظم الفنادق بالنجف؛ ولعلّ تلك الفنادق كانت كذلك لقربها من وادي السلام، فهي تروّض المرء على قبول المدفن مع من يعرف ومن لا يعرف، وتقرّب إلى ذهنه صورة المساواة في دنيا الأموات.

* * *

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولي جيش من أهل العلم والأدب والبيان، وفي أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى، فمددت يدي أمسح خدّها الأسيل فصرخت، وتضاحك الرفاق. ولكني سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائي. وبيت أهلها يقع في دربونة متّصلة بدربونتين إحداهما توصل إلى الرابطة الأدبية، والثانية توصل إلى الحرم الحيدري، ولذلك البيت روشن عليه برادة، وبداخله بئر وسرداب، وفوق الروشن حمامتان تسجعان، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدّر مدامع العشاق.

يا شبيهة ليلى في حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها! ترفّقي بقلبي فقد تركته في الدربونة لتدوسه في كل صباح أقدامك الرقاق.

يا شبيهة «كريمة» الغالية التي تداعب أباها في الاحلام، تذكّري أن طيفاً زارك في النجف ولن يعود؛ يا أخت «زينب» تذكّري أن الرجل الذي مدّ يمينه ليمسح خدّك الأسيل لم يكن فاجراً، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله في سبيل العقيدة والوجدان؛ إليك دمعي يا حلوة يا جميلة، وهو دمع تمرّد على الخطوب، ثم أذلّته عيون الملاح؛ أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهي أن أسمع صراخك مرة ثانية، فما كان، وحقّ الحب، إلا صراخ الدلال.

* * *

وإستيقظت في اليوم التالي مبكّراً لأرى الكوفة، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذي ماسينيون، وكان أكبر همّي أن أرى مسجد الكوفة الذي طُعن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والذي فار في زاويته التنّور لعهد نوح عليه السلام، والذي صلّى فيه ألف نبيّ وألف وصيّ، والذي يحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب، وفي وسطه روضة من رياض الجنة.

كذلك تقول الأساطير...؛ وما كانت في عينيّ وقلبي أساطير، وإن كنت تلميذ منصور فهمي وطه حسين؛ لقد شهدت بعيني كيف طعن علي بن أبي طالب ورأيت دمه رأي العيان.

ورأيت المكان الذي خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة، الحجاج الهائل الذي أصلح العراق، وأفسد العراق.

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين؛ ورأيت كيف يبكي الناس على قبره وكأنما قتل بالأمس، فتذكّرت أن العراق يحوي ثروة عظيمة جداً من الحماسة الوجدانية، وتذكّرت أن العراق تغلب عليه سرعة الإنفعال، فهو يقتل المصلح بلا ترفّق، ثم يجعل البكاء عليه شريعة من الشرائع. تذكّرت أن العراق كالقوة الكهربائية التي تحيي وتميت، وهو ينتظر رجلاً في طغيان الفرات وسماحة النيل.

إن العراق من قوى العروبة والإسلام؛ ولكن أين من يعرف؟ لقد هداني العراق وأضلّني، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال.

* * *

ثم مضيت أتلمس آثار الحيرة البيضاء، مضيت أتلمس آثار الخورنق، فلم أعرف ولم يعرف رفاقي أين الخورنق.

وكان هيامي بأطلال الحيرة موسماً من مواسم الشعر والخيال، وفي ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدنية العرب في الجاهلية ولو كان لي شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش في وجه الزمن ذكريات النعمان.

مضينا إلى اطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان موحش، فقال الرفاق: ليس هذا مكان الخورنق. فقال السائق: أنتم تبحثون عن أحجار، وههنا أحجار!

صدقت أيها الجهول، فنحن نبحث عن أحجار، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق!

عندئذ تذكّرت فراعين مصر، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيم غدّار، وأن التاريخ كلام في كلام، فبنوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان. وقد تقوّضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين؛ ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النعمان! أنت قتلت سنمار ليبقى سرّ الخورنق، فهل بقي الخورنق؟

ليتك إستعنت الجندي المجهول في وادي النيل! ليتك بنيت هرماً يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية!

* * *

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبي!

هذه الكوفة الإسلامية، وتلك الحيرة الجاهلية، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين. فيا ربّ الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق.

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى، ولكن كيف؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذي ضيّع مستقبله في سبيل هواه.

ويصمّم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فأرفض لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسي في دار المعلّمين العالية، وتخلّفي عن دروسي أمر مستحيل، وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطي السيارة إلى بغداد.

* * *

رجعت في زي المساكين لأني لم أجد الشفيع إلى ليلاي.

رجعت ذليلاً مقهوراً، فماذا أصنع؟

آه من حبي وغرامي وبلواي! لقد هجرتني ليلى وصدفت عني ظمياء؛ فلأذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك؛ إلى الموصل الذي رَقَدَت في ثراه عظام أبي تمام، أمتطي قطار المساء...

وفي القطار رأيت رجلاً بيده مجلة تسمّى «الأندلس الجديدة» وهي فيما أتذكّر تصدر في البرازيل، وفيها رأيت مقالة في تجريح صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك؛ فإبتسمت وقلت: جرّحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه! وكان رأسي قد أثقله النعاس، فلم أعرف شيئاً من معالم الطريق.

وصلت إلى كركوك بعد عشر ساعات في القطار، وكركوك هي (شهر زور) في كلام القدماء، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب، لهب النفط، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذي يجذب الفراش، الفراش البغيض الذي يفد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض. وبعض البلاد تؤذي أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز. والجمال يجني على أهله في أكثر الأحيان.

ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالباني فعرّفني بأقربائه ودعاني للتنزّه في حديقته الغناء، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلّمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلّمون العربية.

وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم عليّ، فوقفوا صفاً في أدب وإستحياء، فسألتهم أن ينشدوا شيئاً مما يحفظون، فأسمعوني نشيداً عربياً بديعاً دلّني على أن أطفال تلك الناحية سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين.

وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق، وأن تجعل منه شعباً موحّد اللّغة والتقاليد في زمن قليل. ويؤيّد ذلك أن العروبة هي في الواقع فكرة لا جنس، والكردي يتحوّل بعواطفه إلى العروبة بلا عناء.

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلّة المياه، وفيها اليوم نحو أربعين ألفاً من السكّان، ودورها تبلغ ثمانية آلاف، وبها حديقة للشعب وفيها مكتبة، ولها ضواح صالحة لأن تكون من مرابع الإبتهاج، لو وجدت من يصلها بأصول التمدّن الحديث.

وفي شهر زور - وهي كركوك - يقول أحد الشعراء:

وعدت بأن تزوري بعد شهر فزوري قد تقضي الشهر زور
وموعد بيننا نهر المعلى إلى البلد المسمى شهر زور
فأشهر صدك المحتوم حق ولكن شهر وصلك شهر زور

خطرت ببالي هذه الأبيات وأنا أطوف بكركوك فحزنت، فذلك شاعر كان يشكّ في صدق ليلاه، كما أشكّ في صدق ليلاي. ورأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هناك، ولكني خشيت أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى أربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذي يقول:

تذكرنيك الريح مرت عليلة
على الروض مطلولا وقد وضح الفجر
وما بعدت دار ولا شط منزل
إذا نحن أدنتنا الأماني والذكر

وصلت إلى أربيل في وقت القيظ فلم أجد من النشاط ما أصعد به لرؤية القلعة التي تحدّثت عنها كتب التواريخ؛ وإنما إكتفيت بزيارة المسجد وشهود بعض الأسواق، وراعني أن تقوم أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال.

وفكّرت في تلقّف بعض المعلومات عن أربيل فلم أجد من يسعفني بما أريد، حتّى الشرطي حارس الميدان لم يعرف شيئاً عن عدد السكان في أربيل، ولم يستطع أن يرشدني إلى بعض المدارس. وهذا لا يمنع أن يكون في أربيل أدباء نرى آثار أقلامهم في بعض المجلات المصرية من حين إلى حين.

* * *

ثم إتجهت نحو الموصل فراعني أن أرى حقول الحنطة على جانبي الطريق، وهي تشهد بما في تلك البقاع من خيرات، وراعني أن أرى السيارة تنتقل من نجاد إلى وهاد، ومن وهاد إلى نجاد، كأننا في جبل لبنان.

* * *

وبدأت فزرت قبر أبي تمام؛ وكنت كتبت كلمة عن إصلاح قبره في جريدة الأفكار منذ ثمانية عشر عاماً، وكان من رأيي أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبي تمام أفضل من العناية بإصلاح قبره، فمتى أشرع في تأليف هذا الكتاب؟

كنت مبلبل الخواطر، فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبي تمام، وإنما قرأت على قبر أبي تمام قول أبي تمام:

أحبابه لمَ تفعلون بقلبه
ما ليس يفعله به أعداؤه

وهاج حقدي على ليلاي، فوقفت شارد اللّب، لا أعرف ما أصنع، ثم تلفّت، فرأيت جنيات الشطّ، شطّ دجلة، فسألت رفيقي: ما بال هؤلاء الملاح يلقين الشطّ بلا إحتشام؟

٢٠

ـ خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقي!

كذلك هتف رفيقي ونحن نواجه طلائع الحسن على شاطئ دجلة، فتذكّرت ما بين مصر والعراق من الفروق في دقائق الأذواق: فالعراقي لا يسوءه ولا يؤذيه أن يسمع منك حديث الوجدان، أما المصري فيتحرّج ويتلوم حين يسمع ذلك، ولن أنسى كيف إنتاشتني جرائد الفيّوم، حين كتبت كلمة في جريدة «بحر يوسف»، أذكر فيها كيف كنت أنعم في طفولتي بترنيم هذه التغريدة: «يا بحر يوسف يا ما فيك كان بلطيه».

وكيف كنت أفهم أن «البلطية» هي رمز للغادة الحسناء.

إنتاشتني جرائد الفيّوم في صيف سنة ١٩٣٦، حين قلت ذلك، مع أن الفيّوم يعرف حلاوة العنب وحلاوة التين، ولم يرق طبعه مع الغذاء الرقيق!

وقد قلت مرة أن مدينة الحلة تشبه مدينة الفيوم أو مدينة شبين الكوم، فليكن مفهوماً أن هذا تشبيه مع الفارق، فجرائد الحلة لا تتحدّث عنّي إلا تحت عنوان «طبيب ليلى» وأهلها، مع ذلك، يعرفون أنهم يتحدّثون عن رجل يتشرّف بخدمة العِلم والأدب في العراق.

عفا الله عنك يا ليلى!

كيف تردّينني إلى مصر، لأصوم عن أحاديث الصبابة والحب! كيف تردّينني إلى البلد الذي لا يتقدّم خطوة إلا ليتأخّر قلبي خطوات! كيف تردّينني إلى البلد الذي يرى أهله أن النعيم، كل النعيم، في الماء المرشح، وهم مع ذلك يعرفون أن أجدادهم، الذين جهلوا تقطير الماء، لم يعجزوا عن بناء الأهرام، ولم تعوزهم نعمة العافية، ولم ينقصهم صفاء الأرواح.

ردّونا إلى العهد الأول، وأمكنونا من ذوات الجدائل وهنّ يتخطّرن في الضحى والأصيل. لقد ماتت حبيبتي الأولى في الريف، ولكن إبنتها اليوم ترسل السهام المسمومة إلى غافيات القلوب، فدعوني أصوّب صدري لسهام تلك الغيداء، دعوني أمت، وأنا ساجي الجفنين إلى صدر تلك الطفلة التي شربت من كفّ أمها أكواب الصفاء. أتريدون أن تصلحوا الريف؟

أصلحوا قلبي أوّلاً، ثم إفعلوا بالريف ما شئتم، أصلحوا قلبي فأنا الشاعر الذي تعرفون، وأنا، والله، أبقى لكم من كل ما أبدع التمدّن الحديث.

طافت هذه الخواطر برأسي، وأنا أنظر جنّيات الشاطئ ثم خفت أن أفتضح فتكلّفت الرغبة في أن أعرف تاريخ القنطرة التي تواجه الجسر المصنوع من الحديد، فقال رفيقي إن الذي بناها مهندس مصري وقد غلبه التيار فإنحرفت القنطرة بعض الإنحراف، فقلت في نفسي: ولعلّ جنية من جنيات الشاطئ جنت عليه فأورثته الخبال!

أنا أبحث عن قريبات ليلى، فأين قريبات ليلى؟ أكُتِبَ عليّ أن أخيب في كل ميدان؟

إن حالي في العراق حال الملك الذي نزل من السماء ليلهو أسبوعاً أو أسبوعين في باريس، وقد حدّثنا أناطول فرانس أن ذلك الملك حين تفقّد أجنحته ليرجع إلى السماء وجد ريشها قد عطب فعسر عليه الصعود.

وكذلك دخلت العراق وأنا في أنفس أهله من كبار العلماء، فما هي إلا أيام قلائل حتّى فضحتني ليلى وصيّرتني كما قال رامي في أغاريد أم كلثوم:

«قلبك غدر بي ورماني وفرّج الناس علي».

أين أذهب؟ أين أذهب؟

لا بدّ من التخلّق بأخلاق العلماء لأستر فضيحتي وأداري بلائي.

ـ يا با

ـ مولاي

ـ أنت تعرف أني أتأذّى من أن يمرّ وقتي بلا نفع.

ـ أوقاتك كلها نفع، يا دكتور.

ـ لا، لا، أنا أعرف قيمة أيامي بالموصل، ولا يكفي عندي أن يقيم لي الدكتور عبد الأحد عبد النور وليمة غداء، وأن يقيم لي الدكتور لويس لبيب وليمة عشاء، وأن يحتفل بقدومي أعضاء نادي الجزيرة. فهذه كلها شواهد من اللّطف، ولكنّها لا تملأ الفراغ الذي أحسّه في قلبي وعقلي.

ـ وماذا تقترح؟

ـ أقترح التعرّف إلى الموصل.

ـ إيش لون؟

ـ أحبّ أن أعرف كل شيء في هذه المدينة.

ـ ذلك مطلب عزيز المنال.

ـ تعال ننظر إلى الظواهر فهي باب إلى الحقائق.

* * *

دخلت المكتبة العامة وهي تسمّى «مكتبة غازي» فرأيت فيها أفواجاً من المطالعين هم جميعاً من الطلاب، ورأيت فريقاً منهم يتخذّها مكانا لمراجعة الواجبات المدرسية فدلّني ذلك على أنّ في شبّان الموصل من لا يجد النور والهواء إلا في مثل ذلك المكان.

والمكتبة فقيرة فقراً مدقعاً، فليس فيها من الكتب غير ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعين، ومعنى ذلك أن مكتبتي الخصوصية بمصر الجديدة أكبر منها ثلاث مرات!

ونظرت في عدد المطالعين في هذه السنة، فوجدت من طلبوا الجرائد والمجلات وصلوا إلى ثلاثة آلاف ورأيت كتب الأدب طلبها ١٨١٢، والروايات طلبها ١٩١١ وكتب الحقوق طلبها أربعة فقط، والمعاجم والموسوعات طلبها ١٨٨، أما الكتب الإقتصادية والنحوية فلم يطلبها أحد.

وحرصت على أن أعرف ما بأيدي المطالعين حين دخلت فوجدت من المجلات (الدنيا) و(الفكاهة)، ورأيت من الكتب (الأجنحة المتكسّرة) و(النظرات) و(مرجريت) و(حب إبن أبي ربيعة).

ومن واجبي أن أسجّل أن هذه المكتبة لا تناسب ماضي الموصل ولا حاضر الموصل، وما قلت إن مكتبتي الخصوصية أكبر منها ثلاث مرّات إلا لأحرّض أهل الموصل على إغناء هذه المكتبة بألوف المجلّدات، وسيظهر أثر هذا التحريض بعد قليل.

* * *

خرجت من المكتبة فوقفت لحظة على شاطئ دجلة، وما زلت في رحاب المكتبة، فوجدت الشاطئ الآخر يزدان بحديقة جميلة توحي الشعر والخيال فوثبت إليها في لحظتين.

هل أقول أن هذه الحديقة أنشئت سنة ٤٥٠هـ وهو التاريخ الذي أسّس فيه الجامع الكبير؟ هل أقول أنها أنشئت سنة ١١٥١هـ، وهو تاريخ المنبر بذلك الجامع؟

لا هذا ولا ذاك: هي حديقة أنشئت بعد إستقلال العراق، ويقال أن الذي فكّر في إنشائها رجل من الإنجليز، وكانت تسمّى بإسمه، ولكنها اليوم تسمّى حديقة، وفيها مشابه من حديقة النباتات في باريس: وفي طرف من أطراف تلك الحديقة رأيت نبات «الهعخع» الذي يذكر في مقدّمات كتب البلاغة، وقد بلّغته تحيّات الأساتذة بالأزهر الشريف! وعرفت أن الحديقة تنقسم إلى قسمين: قسم لنزهة الرجال، وقسم لنزهة النساء.

وقد إعترضت على هذا التفريق لأول وهلة، ثم رأيت ما أقنعني بعقل أهل الموصل. رأيت إمرأة ملفوفة في عباءة فطار صوابي، هي دنيا من الحسن يتموج في ثنايا ذلك الجلباب، هي فتنة تنقلها المقادير من شط إلى شط، ومن جادة إلى جادة، ومن دربونة إلى دربونة، إلى أن تكفّ أذاها عن الناس بوضعها في بيت مسدود. وتقدّم رفيقي فقال لها في همس: هل تعلمين أن طبيب ليلى في الموصل؟ فقالت في تلهّف: ودّوني عليه!

وما كدت أسمع هذا الجواب حتى هربت، وكيف أصمد لهذه الفتنة المتحركة وأنا رجل خفّاق القلب، مفضوح النظرات؟

لا أدري كيف يسكت شعراء الموصل في هذه السنين.

أنطقوا يا عنادل فإن الحسن في وطنكم ينطق الجلاميد.

أنطقوا، يا عنادل، أنطقوا!! أنطقوا لتسكت الضفادع التي تطيل النقيق في حديث الحرام والحلال!

* * *

وقد وقعت نادرة تستحق التدوين.

دخلت إحدى مدارس البنات فوجدت المدرسة في هرج ومرج، ثم سألت عن السبب فعرفت أن التلميذات تسامعن بقدوم الدكتور زكي مبارك فإنزعجن أشدّ الإنزعاج لأنهنّ ظنن أنه جاء ليقوم بعملية التطعيم ضد التيفوئيد.

ولم تهدأ الخواطر إلا حين أعلنت مديرة المدرسة أن الدكتور زكي مبارك طبيب أرواح لا طبيب أبدان.

أنا طبيب أرواح؟ أنا؟ أنا؟

أنا طبيب أرواح؟ ليتني داويت روحي!

ومن هو العليل الذي يبذر جراثيم الفتون في كل بلد يحل فيه؟

إني لأعجب كيف تتّسع رحمة الله لرجل في مثل حالي.

كم تألّمت، وكم بكيت، كلّما تذكّرت إساءتي إلى نفسي وإلى الناس.

لقد جعلت الحديث في الحب شريعة من الشرائع.

هل أحسنت! هل أسأت؟ لا أعرف بالضبط، ولكن قلبي يحدثني بأني كنت من المسرفين.

تمرّ بي لحظات أنس ولحظات بؤس، أتوهّم حيناً أني أخدم لغتي بهذه الأحاديث، وأعتقد أحياناً أني أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث، فأين مكان الخطأ، وأين مظنة الصواب؟

ومن العجيب مع هذا كله أن أكون أصدق من شغل في هذا العصر بدراسة الأخلاق.

أحب أن أعرف نفسي، فهل أستطيع أن أعرف نفسي؟

هيهات، هيهات!! ليلى هي السبب في محنتي وشقائي.

تركت ليلى المريضة في الزمالك، فوجدت ليلى المريضة في العراق، وكنت وجدت لهما أختاً قبل ذلك في باريس.

فأين المفرّ من العيون العسلية والعيون الزرق والعيون الشهل والعيون السود؟

أين المفرّ وبيني وبين الجمال أسلاك جواذب من الكهرباء؟

ولو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وإنتهيت، ولكني رجل عفيف، وهنا تظهر دقة الأشكال، ومَن الذي يصدّق أني رجل عفيف وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات؟

إن ليلى هي التي تستطيع أن تشهد بعفافي. ولكن هل في مقدور إمرأة أن تقول كلمة الحق؟ ما رفعت بصري إلى إمرأة إلا مضت تقول في كل مكان أنّ بيني وبينها أشياء، وينهاني الأدب عن تكذيب الملاح فتسوء سمعتي بلا حساب.

أشهد أني سأكون أضعف الناس حجة يوم ألقى ربي، وما أظنني سألقاه إلا بدمع دافق، فهل يتفضّل، عزّ شأنه، فيغفر ذنوبي، كما ستر عيوبي؟



إني لأعجب ثم أعجب كيف سكت الله عنّي عشرين سنة أو تزيد، فلم يفضحني، مع أني رجل مسكين لن يجد في حسابه حسنة واحدة يوم تنصب الموازين. وهل رأت العيون أغرب وأعجب من أن يكون لمثلي تلاميذ يقبلون يمناه بحرارة وقوة؟

عفا الله عنكم يا تلاميذي، فأنتم لا تعرفون أن أستاذكم خرّب ما بينه وبين الله أشنع تخريب. ثقوا يا تلاميذي بأنني خدعتكم أقبح خداع، وما سكت الله عنّي إلا لأنه رآني أصغر من أن أستحق التأديب، أو لأنه رأى من حق الأطفال أن يرسموا ما يشاءون من الخطوط فوق الرمال.

لي عذر واحد يا تلاميذي، فقد عزّ عليّ أن أترك عواطفي تتبدّد فلا يسجلها غناء ولا أنين، مع أنها أكرم من الذهب وأثمن من الماس.

لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شربت لتحوّل إلى أوتار وقلوب، فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرج من حولي بأنفاس الأزهار والرياحين، ولي قلب يتشوّف إلى أفنان الجمال تشوّف الشمس إلى أنداء الصباح.

لا تغترّوا بعفو الله يا تلاميذي كما إغتررت، إلا إذا كان فيكم رجال يعرفون عيوبهم كما أعرف عيوبي وأنا أدعوكم إلى سحب الثقة من أستاذكم الجهول.

أدعوكم إلى اليقين بأنكم عرفتم رجلاً لا يستأهل رحمة الله، ولو حاسبني الله بميزان العدل لمحا إسمي محواً من قائمة الوجود.

إسمعوا، يا تلاميذي، إسمعوا: إن ناساً يعتذرون عنّي فيضيفونني إلى الصوفية، وهذا حق من جانب وخطأ من جانب، فأنا متصوّف بالقول لا بالفعل، ولولا الأدب مع الله الذي ستر عيوبي لفضحت نفسي بلا ترفّق، وأريتكم مبلغ الزور والبهتان في سلوكي، السلوك الذي لا يليق برجل يؤمن بفاطر الأرض والسموات.

إسمعوا، يا تلاميذي، إسمعوا: لقد فتحت أمام أعينكم وقلوبكم آفاقاً من الضلال يوم أقنعتكم بالقلم واللسان أنكم مأمورون بالنظر في كل شيء، فهل تستطيع أعينكم وقلوبكم أن تدرك المجهول من حقائق الوجود؟ إن أستاذكم ضاع ثم ضاع، لأنه خاطب الناس بما لا يفهمون، فاحذروا أن تخاطبوا الناس بما لا يفهمون.

وهل تصدّقون أنني خاطبت نفسي بما لا تفهم نفسي؟ هل تصدّقون أنني رأيت ربّي رأي العين، وأنني حاسبته أشدّ الحساب؟

إسمعوا، يا تلاميذي، وإعقلوا: سيموت أستاذكم مقتولاً بسحر العيون، وهو يرجوكم أن تخصّوه بالدعوات الصالحات، في أعقاب الصلوات، وثقوا يا تلاميذي بأن عطفكم عليّ هو أثمن ما إقتنيت من الذخائر في حياتي، ثقوا بأنني ما إدّخرت لنفسي غير حبكم وكرمكم وعطفكم وما أحسبني من الخاسرين، سيترك لكم أستاذكم تركة مثقلة بالديون، فدافعوا عنّي وأقضوا ديوني.

وأنت يا رب، ماذا إدخرت لعبدك الأواب؟

أكتبني من المشرّدين في حبك، وإجعلني من المضللين في هواك.

(١) إعترض باحث في مجلة الرسالة على عبارة «إليك الدينار». وقال إن الصواب «هاك الدينار» فليعرف أن العبارة الأولى هي أيضاً صواب.

(٢) الجادة في بغداد هي الشارع.

(٣) الدرب في مصر هي الدربونة في العراق.

(٤) الكبة عند العراقيين هي الكبيبة عند السوريين، ويقال أن الكبة الموصلية كانت السرّ في براعة أبي إسحاق في الغناء!

(٥) أكو: يوجد، ويقابلها (ماكو) أي لا يوجد في اللهجة العراقية.

(٦) كلمة (درهم) لا تزال حية في العراق وهي قطعة تساوي ـ الربع ريال ـ في العملة المصرية.

(٧) تجد شرح هذه الإشارة في كتابي «وحي بغداد».

(٨) صحّ عندي بعد التأمّل أن المراد بالثغور الأموية النص على أنها سنّية لا شيعية، وقد إهتديت إلى هذا المعنى بعد التعمّق في درس أحوال العراق.